تاريخ مضاد- حمزة الحسن - رواية

تاريخ مضاد

حمزة الحسن

رواية

المؤلف: حمزة الحسن

التصنيف: أدب/ رواية

الناشر: داربصرياثا للثقافة والأدب للنشر- العراق

ISBN الترقيم الدولي: 978-9922-8818-4-3

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، ولا يجوز اعادة انتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على موافقة المؤلف وإذن مسبق من دار النشر.

All rights reseved. Except for the quotation of short passages for puposes of criticism or review,no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى-٢٠٢٤

BASRAYATHA PUBLISHING
IRAQ- BASRAWW
P.O.BOX 1289
009647767437680

الرواية ليست سرد مغامرات بل مغامرة السرد

- كلود سيمون.

"وحدي في الظلام، أقلب العالم في رأسي فيما أنا أصارع نوبة أخرى من الأرق، وليلةً بيضاء أخرى في العراء الأميركي العظيم».

- رجل في الظلام، بول أوستر.

١

في رواية رجل في الظلام يقوم أوغست بريل، الذي يرقد وحيداً في الظلام كل ليلة، بعد أن أقعدته حادثة سيارة في بيت ابنته الوحيدة ميريام في فرمونت بالحكي لنفسه في ليالي الأرق محاولاً نسيان المشاكل التي تعرض لها: موت زوجته، مقتل صديق حفيدته في غزو العراق، ويتخيل ناقد الكتب المتقاعد عالماً موازياً لا تكون فيه أمريكا قد غزت العراق ولم يسقط البرجان بل دخلت أمريكا في حرب أهلية ويخترع شخصية متخيلة أوين بريك يقع في حفرة في أمريكا وتسند اليه مهمة البحث عن مؤلف الرواية الذي اخترع هذه الاحداث لقتله.

لكي يتخلص بريل من القلق والارق يفكر في قصة عن رجل يستيقظ على أميركا مختلفة، أميركا لم تقع فيها أحداث الحادي عشر من سبتمبر ولم تنشب فيها حرب العراق ولم يسقط البرجان ولكنها أميركا أدت فيها الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٠ المثيرة للخلاف إلى إشعال نيران حرب أهلية بين الولايات الزرقاء والولايات الحمراء أطاحت بحياة الملايين من البشر في نوع من التاريخ البديل alternative history تقع فيه الأحداث بشكل مختلف عن الواقع،

أي التاريخ الموازي.

فقد بريل زوجته العام الماضي، كما أنه يروعه الموت الصارم الذي اغتال حبيب حفيدته السابق، والحفيدة تتعافى بدورها في منزل أمها. والجد والحفيدة يبعدان عنهما الخواطر المؤرقة بمشاهدة أفلام سينمائية عظيمة طوال اليوم. يتخيل بريل في السرير قصة أوين بريك الذي يمضي إلى الفراش ذات ليلة مع زوجته في حي كوين بنيويورك، ويستيقظ في حفرة في أميركا التي غدت بلداً لا يعرفه في حرب أهلية.

عندما لا أستطيع النوم ولكي أتخلص من الأمور التي لا أرغب في تذكرها، أقص على نفسي قصصاً مخترعة كما يفعل أوغست بريل، أنا أيضاً أعيش مع ابنتي الوحيدة في الثالثة والعشرين في الطابق الثاني، وأحيانا تحب أن أروي لها حكايات قبل النوم ، بعضها متخيل والبعض الآخر و اقعي لكن عن طريق الخيال، اذ يمكن رو اية الحقيقة عن طريق الخيال، لكن العالم الموازي الذي أخلقه ليس هو نفسه عالم بريل، وفيه أمريكا غزت العراق ودخل هذا في صراع مسلح كلف أرواحاً كثيرة وسقوط مدن ، ولو لا أن ابنتي تحب قصصاً و اقعية كما تقول، لما رويت لها تلك الوقائع ، ولا أدعي أني لا أختلق حكايات مخففة لكي تنام عندما كانت طفلة، وعندما كبرت اكتشفتْ أن حكاية الحصان الأبيض والأسود التي أحبتها لم تكن حقيقية ولم

أملك يوماً أي حصان في العراق، لكنها اكتشفت ان القسم الآخر من القصص صحيح بل مفرطة في الو اقعية بعد أن بدأت تفهم أن الخيال يسد الثغرات وهذا لا يسمى كذباً كما في كتاب لنا مشترك بعنوان» أكاذيب بابا الجميلة«.

في العزلة النار والذاكرة والمطر والصمت يبدأ وقت التخيل والكتابة والسرد أو الحكي. العزلة ليست مكاناً بل هي روح. أمام شمعة، ما نتخيله أكثر مما نفكر فيه، بتعبير غاستون باشلار، لأن علاقة الانسان بالنار قديمة وكذلك مع المطر. مع النار ولهب شمعة وصوت المطر والصمت تحضر الأبدية في لحظات وتعيش مجمل تاريخ البشرية على ضوء فانوس.

لا أحد يطرق الباب في الليل والثلج يتساقط، ومع الريح تلوح كرات الثلج مجنحة، وفي السكون البدائي تبدو الأرض كما لو تولد الآن، كل شيء ينبثق كالبدايات الأولى، و أنا نفسي اكون مختلفاً أمام انبثاق الاشياء. لا أستبعد مرور ذئب أو وعل أو غزال بحثاً عن طعام بعد أن يكون الثلج قد غطى كل شيء أو سرب غزلان مجفلة من موسيقى الجيران في الليل على ضوء البرق.

من آذار وحتى أيلول تظل الشمس مشرقة حتى منتصف الليل كظاهرة قطبية لانحراف الأرض عن محورها لذلك من الصعب

وضع شخصية روائية لو قررت كتابة رواية تمشي والشمس مشرقة منتصف الليل. لكني مثل اوغست بريل اعاني من مشكلة» تكثيف الانتباه، فغالباً ما ينحرف ذهني عن القصة التي أحاول سردها لينحو باتجّاه أشياء لا أريد التفكير فيها» كما يقول.

الحياة هنا ليست الحياة هناك، لا أقنعة ولا تمثيل ولا فخاخ ولا تحتاج الى تفسيروتحليل الغازولا قلق. سيكون مسلياً لو خرج ذئب رمادي جميل كما لو أنه خرج تواً من قصيدة لبورخيس مطلي بالمطر والضوء والعزلة ودهن الزيتون. الذئاب هنا مسالمة. من تجارب سابقة بعد منتصف الليل، على ضوء الشموع وصوت تكسر خشب الصنوبر في المدفأة الحجرية، تهطل الذاكرة بالصور أكثر مما يهطل الثلج. ماذا يريد الماضي هنا في هذه الاصقاع الجليدية؟

خارج النافذة قمر أبيض، قمر أبيض صغير يشبه أقمار الرسام مارك شاغال الطفولية المرحة وهي تضحك. قد يمر وشق بري نافر وينظر نحو النافذة، لسنا غرباء في المنفى. أنا لست معقداً من شيء وعلى العكس أحب القمر الأبيض وضوء الشموع ومرور ذئب رمادي وحفنة أصدقاء، بل في أعماق العزلة مستعد للاحتفال بزيارة جلاد قديم، أو حتى مرور جنازة في هذا البياض المضيء، أنا أصدق كل شيء يقال لي حتى الدهاء أسميه دعابة، أغفر لكن لا أنسى، سذاجة رجل عاش في البراري ولم يخرج منها أبداً.

أتحدث مع نفسي كطفل مع دميته وأغضب مثله وأكسرها. أكتب أيضاً بلغة عفوية وأُصدم من قصدية الآخرين، لا أعرف كيف يفسرون ما لا يُفسر؟ لماذا يغضبون؟ أنصح دائما بقول دويستوفسكي:

" عندما تكون فرحاً، ستقع في أخطاء كثيرة» لكن هذا الكلام لا ينطبق على كل مكان وزمان وهنا مثلاً يمكنك أن ترتكب ما تشاء من أخطاء تحت فرح عاصف بلا أحكام ثقيلة ولا عقلية وصم. لا توجد عندي مشكلة مع أحد ولا مع نفسي، وحتى لو جلس الذئب الرمادي على عتبة الباب سيكون حضوره مسلياً ومن الجميل أن تتكون ذاكرة جديدة مختلفة بلا حروب ولا ضغائن ولا أضداد. مرة كان الثلج يهطل وصوت تكسر ناعم للحطب في الموقد وضوء الشموع يخلق ظلالاً عميقة على الحيطان، سمعت موكباً يمر عبر النافذة قد يكون متخيلاً، سمعت أصوات فحيح دراويش ودوي طبل وصنوج، لكن لا شيء في الخارج عدا البياض الثلجي: هو الماضي بلا شك يستعرض نفسه. أكثر ما يلفت النظر في غرفة النوم هو لهب شمعة ومن لم يعش طويلاً في العزلة والسكون، لا يعرف كيف كانت الحياة يوم كانت الأرض غمراً، وبياضاً وفراغاً في مرحلة التكوين. لا أبذل جهدا مثل أوغست بريل لتذكر الأشياء ويكفي أن استلقي حتى تهطل حوادث كثيرة بعضها حقيقي والآخر لم يحدث لكنه حقيقي أيضا ما

دمت قد شعرت به و انفعلت. ليس الظلام هنا حالكاً كما في رو اية بول أوستر مؤلف «ثلاثية نيويورك» لأننا في نهار دائم لمدة نصف عام.

كل لحظة هي أبدية هنا ولا يقاس الزمن بالسنوات، بل بالضوء والثلج والمطر والعاصفة والنار واحتراق شمعة والخيال. نوع من الخلود في لحظات بعد أن تشوه العالم لرجل عاش حربين ويحتفل بالتفاصيل. ضوء المصباح لا يحفز على التخيل لأنه ظاهرة حديثة وعكس النار التي تطلق الخيال، لكن حذار من العزلة التامة لأنها لا تحتمل بلا صفاء داخلي وصلح مع الذات، العزلة كما قال نيتشة لا يتحملها غير إله أو وحش، الإله مكتمل والوحش غير مدرك.

ليس لهب الشمعة ما يحفز على الخيال في العزلة فحسب، بل رائحة عطر قديم ملتصق بجسدك، وفي تأملات العزلة سترى العطر ماشياً في صورة امرأة، على نحو خاص صورة فريدة التي ظهرت في رو ايتنا» ولادة الذئب» محامية وكنت أقيم في مكتبها في شارع السعدون في بغداد خلال زياراتي والمكتب شقة مرفهة ونحن نعيش حياة مشتركة. يوم غادرت العراق كانت صبية واليوم تجاوزت الأربعين بجسد نافر حي كفتاة في العشرين. في رو اية» ولادة الذئب» قررت اغتيال عقيد الشرطة حازم الذي تعاون معنا في قضية البحث عن جر ائم قتل النساء والزعم انهن منتحرات، لكنه في الو اقع لم يتعرض للاغتيال لكن التركيب اللغوي المعقد للرو اية فرض حالة

الاغتيال التي نجا منها.

على عواء ذئب رمادي على قمر أبيض بعيد، تحت الثلج وأمام المدفأة وخشب الصنوبر المتكسر، سوف تشعر أنك تتشكل الآن، تواً، بذاكرة جديدة معطرة بالمطر والضوء والصمت. ليس سوى المطر خارج النافذة، المطر وحده وآثار أقدام غزلان فوق الثلج. الحياة تحتفل بعيداً عن الضجيج.

٢

كان بول أوستر قد خلق شخصية أوغست بريل الذي بدوره خلق شخصية أوين بريك الو اقع في حفرة عميقة في حرب تذكرني بالحفرة العميقة التي وقعت فيها في الحرب وكانت الألغام تطفو فوق مياه الامطار حولي وجرذ ضخم من جرذان الحرب يكشر أنيابه منتظراً موتي ولا أعرف من أقاتل، و اقع بين جيشين متحاربين، و أنا في عزلة موحشة باردة، أفكر في الهروب من الحرب، لم أجد حاجة لوضع شخصية أخرى في حفرة كشخصية أوين بريك وأجعله يعاني لأنني نفسي عشت هذه المشكلة . حفرة بريك بعمق تسعة أقدام وحفرتي بين جيشين بعمق أربعة أمتاروحافات حادة يصعب تسلقها لذلك قضية وقتاً أبحث عن طريقة للتسلق والتخلص من الجرذ ومن الألغام ومن الانكشاف لأنني وسط الأرض الحرام صرت عدواً للطرفين. لكن بريك يستعيد وعيه ويكتشف انه كان يحلم وسيفترض أنه «تلقى صدمة على الرأس وعلى أثرها فقد الذاكرة» لكن هذا لم يحدث لي عندما أفيق من التذكر لانني في حلم و اقعي شديد الكثافة. لو كتبت رو اية كنت سأجعل « رجل الظلام» هو الكولونيل جيمس

ستيل خبير القوات الخاصة ومشعل الحروب الاهلية في قارة أمريكا اللاتينية الذي قدم للعراق عام ٢٠٠٤ لزحلقته من مقاومة الاحتلال الى صراع محلي مسلح من خبرته في السلفادوروكولومبيا ونيكاراغوى وغيرها.

أقدام ثقيلة بعد منتصف الليل للوحش الذي سحق العراق بأقدام ثقيلة واختفى نهائياً. يذكر موفق الربيعي مستشار الأمن القومي العراقي تلك السنوات في لقاء مع صحيفة الغارديان ومحطة BBC « دخل رجل الى اجتماع للمجلس، وسحب كرسياً وجلس دون أن يعرف بنفسه، وكان غامضاً".

لكن هذا المستشار لا يقول، كرئيس مجلس أمن قومي، لماذا لم يجرؤ على سؤال الز ائر» الغامض» عن اسمه،كما يحدث في المقاهى والحانات ومصاطب الحدائق، وليس في مجلس أمن قومي في اجتماع سري ومغلق؟

اذا كان مستشار الامن القومي عاجزاً عن حماية مجلسه في غرفة من شخص دخيل لا يعرفه بل احتقره وجلس دون أن يعرف نفسه، فكيف يحمي الأمن القومي للوطن؟ لم يكن غامضاً للمستشار الدمية بل كان يعرفه ويعرف عو اقب السؤال. هو الرجل الغامض الذي نقل الخيار السلفادوري، خيار نقل الحرب ضد الاحتلال الى

قتل عشوائي أهلي في العراق. هو الكولونيل جيمس ستيل الذي أعجب به الجنرال باتريوس قائد الجيش الأمريكي في العراق خلال الاطلاع على تاريخه الوحشي في السلفادوروكولومبيا والتقاه هناك، بعد أن ارتكب ستيل مذابح بحق الابرياء العزل كلفت أكثر من سبعين الف ضحية في السلفادورونصف مليون ضحية في كولومبيا وخمسة ملايين مهجر وحرق المزروعات وخراب المدن، بعد خبرة طويلة في الحروب الاهلية في امريكا اللاتينية، كتبت عنها صحيفة الغارديان تقريرا مفصلاً، وعن الطريقة التي نقل بها هذا القاتل تجربة فرق الموت الى العراق، بطلب من وزير الدفاع رامسفيلد، وهو رجل غامض لا يصرح ولا يرد لأن سجله في القتل الوحشي لا يمكن تصوره، وهو من مؤسسي فرق الموت في العراق بغطاء « تدريب قوات الامن والشرطة"، الغطاء نفسه الذي مارسه في أمريكا اللاتينية، لم يكن يهمه من يَقتل من، لا هوية القتيل الطائفية ولا هوية القاتل أيضا، اخترق الاثنين، واستطاع تطويع حركات مسلحة ضد الاحتلال، وصارت تقاتل بعضها، وقوى مسلحة من الطوائف تقاتل بعضها وعشائر عاشت قرونا في سلام عرفي وتقليدي آمن، تقاتل بعضها ، لأن هدفه المركزي من خبرات قديمة نقل الصراع من» حرب ضد الاحتلال الى مذابح أهلية"، وقد نجح وكرم على هذا النجاح عند العودة.

لم يرد ستيل على التحقيق الموثق الذي قامت به الغارديان ومحطة بي بي سي، وهو معروف ـ ومطلوب ـ بصورة دقيقة لدى الحركات الوطنية في فيتنام والسلفادور ونيكاراغوا وغيرها. تقول الغارديان:

« ان كولونيل القوات الخاصة ستيل المخضرم في « الحروب القذرة» في امريكا الوسطى، تم ارساله الى العراق كخبير بطريقة« انزلاق» البلاد من حرب ضد الاحتلال الى حرب أهلية شاملة، للعمل مع قوات الأمن والشرطة، مع الكولونيل كوفمان وهو ايضا متقاعد ويعمل مع ستيل في شركة خرقت قواعد التعامل ـ القانوني المالي ـ وحصلت على ملايين الدولارات وخضعت لتحقيق قضائي»

وصل ستيل الى العراق عام ٢٠٠٤ وكانت تقاريره ترفع مباشرة الى وزير الدفاع رامسفيلد، وهو أول من أسس قواعد التعذيب الرهيبة في السجون العر اقية، حتى ان ضابطاً عر اقياً عمل معه ـ اللواء منتظر السامر ائي هارب في عمان ـ يقول ان صحفياً من نيويورك تايمزكان يسمع الصرخات من غرف التعذيب، ونقول له ان هؤلاء دراويش يمارسون طقوسا دينية. يعرف هذا الضابط الهارب، اليوم، والمقيم في عمان في فنادق كبرى مرفهة، إن ستيل هو مؤسس هذا النوع من التعذيب. تقول الغارديان: «مصور في صحيفة نيويورك تايمززار ستيل في مكتبة في سامراء لكنه رأى الدماء في كل مكان، وكان

معه الصحفي بيتر مايس. حوّل المكتبة الى مركز تعذيب وقتل. لكن تدريب الشرطة ليس سوى الغطاء لعمل أخطرو«الغطاء» ضروري للحركة، فماذا كان الهدف الحقيقي لستيل الذي عمل بأمره السفير نيغروبونتي خبير الحروب الاهلية هو الآخر والقتل العشوائي؟ تقول الغارديان: «كان ستيل رئيس فريق الولايات المتحدة S ومسؤولاً عن تمويل فرق شبه عسكرية عام ١٩٨٠ في امريكا الوسطى، وكان أيضا يعمل في السلفادور« تحت غطاء تدريب مكافحة التمرد"، وعندما زار الجنرال باتريوس السلفادور عام ١٩٨٦ تعرف على ستيل، وصار مدافعا رئيسياً عن اساليب «مكافحة التمرد». كانت أول تجربة لستيل في فيتنام عام ١٩٦٥ ـ ١٩٧٥، وبعد قتل ٥٨,٠٠٠ من الجنود الامريكيين، من قبل قوات الفيتكونغ وجهت ضربة الى الثقة بالنفس، وكان يجب تغيير التفكير العسكري للصراع: «اسلوب المذابح".

عام ١٩٧٩ سقطت الحكومة - الشرعية -بانقلاب عسكري في السلفادور، بدعم وتنظيم الولايات المتحدة، وفي عام ١٩٨٤ - ١٩٨٦ حضر ستيل مستشار القوات الخاصة، وكان رئيساً لكتائب الخطوط الامامية للجيش السلفادوري، وتم تأسيس فرق الموت التي نكلت بالابرياء ،حتى ان البروفسور تيري الخبير في جامعة ستانفورد في الحرب الاهلية في السلفادور- استمرت ١٣ سنة- قال:»إن الهدف الرئيس لستيل هو تحويل المعركة من معركة حرب شاملة الى القتل

العشـوائي"، كلفـت - الـكلام لتيري - الاف الارواح وكان تركيزه على الـذكاء البشـري والاسـتجوب».

تجربته في كولومبيا وحشـية وهنـاك قـاد «منظمـة القبعـات الخضـر"، وهي منظمـة ارهابية وداعـش صـورة مسـتنسخة منهـا: الضـرب في المقدس. تم اغتيال الأسـقف الشـجاع ماريرو في السـلفادور وهو يصلي في قداس عام في الشارع والكولونيل ستيل خلف الجريمة، لتندلـع حـرب أهليـة مـدة ١٣ سـنة انتهـت في اتفـاق سـلام .اسـلوب الضـرب في الرموز والاماكـن المقدسـة تكرر في العـراق لخلق فتنـة ، وتُنسـب الجريمـة الى مجهولين أو تنظيم ارهابي مخترق أو تحـت اليـد. خيار تحويل مسار الحرب الى القتل العشـوائي خياره المفضل، وهـو الأمر الذي مارسـه في العراق عندما بدل مسار الحرب الى حرب شـبه أهليـة بوسـائل خبير محترف وبنى البنيـة التحتيـة لصـراع أهلي يرتفـع وينخفـض حسـب الحـوادث مع فترات هدنـة لكي لا يحـدث الانفجـار والسـخط العـام، وعـودة رتابة الحياة اليومية لكي ينسى النـاس ولكي لا تبدو الجرائم كنمـط منسـق متسلسـل بل تنوع في القتلى، ثم يبدأ إيقـاع القتـل والمفخخـات والتلاعـب بفتـح جبهـات وتهدئـة أخـرى كلمـا ظهـرت أزمـة سياسـية في الأفـق.

كان سـتيل الخبير في العـادات والتقاليـد والاعـراف والطقـوس والقيـادات المسـيحية كالرهبان والقسـاوسـة في امريكا اللاتينية واجه

صعوبة في العراق في نقل الصراع الى مستوى الحرب الأهلية رغم التصدعات والثغرات واللعب على الحساسيات وعمليات القتل هنا اليوم وغدا هناك، وهتك الاعراض وشراء الذمم والقتل والقتل المضاد، واغتيال الرموز الأهلية، وهو يمتلك، تحت تصرفه، كامل قوة الولايات المتحدة من مال وسلاح وأجهزة وجيوش، مع وكلاء محليين مدربين وعناصر من النظام القديم ساخطة، ومن النظام الجديد غطست في الملذات والسرقة بلا مؤهلات ولا مواهب. تمكنت التكوينات التقليدية والقبلية من اطفاء الجزء الاكبر من الحر ائق التي كانت تشتعل رغم تصدع النسيج و انفتاح ثغرات فيه في أمكنة كثيرة، وخاصة في سنوات ستيل، وكان يعرف بالضبط نقاط التفجير التي تدفع الناس هائجين مسلحين بكل شيء الى الشوارع في غياب كل فرصة للتفكير، وعلى نحو خاص اللعب على المقدس، وأخطر جر ائم ستيل عملية تفجير المر اقد في سامراء في شباط ٢٠٠٦ التي وضعت البلاد على حافة الهاوية، وليس صعباً أن يعلن تنظيم» جهادي» مسؤوليته عن الجريمة لأن ستيل والوكالة تضع يدها على منظمات من كل الأنواع، اختر اقاً أو إشر افاً مباشراً، كما فعلت في السلفادور ونيكاراغو وفيتنام وهندوروس وكولومبيا وغيرها.

أي تتبع احصائي دقيق أو حتى تذكر سيصل بسهولة الى هذه النتيجة: انخفاض شديد في عدد القتلى الامريكان الى الحد الأدنى،

مع زيادة هائلة في عدد القتلى العراقيين المغدورين أو المختفين وفي تفجيرات الاماكن العامة: تم تغيير مسار الحرب الى صراع أهلي مسلح، في بلد مفكك، في ساعة منعطف، النظام القديم تفسخ ولم يمت، والنظام الجديد ولد، متفسخاً، صار المسرح، جاهزاً، لكل أنواع تجارب القتل.

كانت سيارة للدفع الرباعي تابعة للسفارة الامريكية قد انفجرت من الداخل بعد خروجها مباشرة، نتيجة خلل تقني، من المنطقة الخضراء، وقُتل من فيها، وهي معدة للوضع في الاسواق والساحات العامة، دون أي تحقيق في الأمر.

العقبة الرئيسة التي واجهته وفريقه، في غياب حركة وطنية منظمة وفعالة، كانت ان المجتمع العراقي التقليدي غير خاضع كلياً لسلطة الاحزاب السياسية، التي يتحكم بالكثير منها، بل لتكوينات دينية وقبلية كانت تسارع الى كبح نزعات الانفلات والقتل الثأري العشوائي التي تدبرها فرق ستيل ونيغروبونتي على مقربة أمتار من مقرات السلطة الحاكمة، في أكبر سفارة في العالم أو البنتاغون رقم ٢ بتعبير نعومي تشومسكي جاهزة لادارة حرب في الشرق الأوسط.

لكن سجل ستيل وصل الى نيكاراغوا ايام سيطرة الجبهة الثورية الساندنية للحكم، وتواصل الغارديان سيرته في نيكاراغوا: « أصبح

مسؤولاً عما يعرف بقضية» الكونترا» أي تهريب السلاح الى جماعات يمينية تقاتل الحكومة اليسارية بزعامة دانييل أورتيغا. وكما فعل في السلفادوروفيتنام والعراق، أدخل نيكاراغوا في حرب طاحنة بعد نقل مستوى الصراع من صراع عسكري مسلح، الى مذابح، وهي الخبرة الرئيسة للكولونيل ستيل».

أما عن العراق، تختتم الغارديان: وصل ستيل عام ٢٠٠٤ - كان في الثامنة والخمسين ومتقاعداً - لكن الجنرال باتريوس تذكر خدماته في السلفادوروفي غيرها وكان اتصاله المباشر بوزير الدفاع، بعد أن أسس مراكز التعذيب، وأسس لفرق خاصة تحولت الى فرق موت. كان قد استعمل سلاح الطائفية بعد ان عرف خطورته في العراق، وغادر العراق بعد أن ترك الميلشيات والعصابات وفرق الموت، من كل الاطراف، تتقاتل على أسباب من السهل اشعال النار فيها، ولم يظهر في الواجهة أبداً كمحترف ولم تلتقط له سوى صورة واحدة أو اثنتين، دون ان يفطن وفي غفلة، لكنه كان يسحق شوارع العراق بأقدام ثقيلة، ويتركنا نحلل ونفسر ونشرح هذا القتل العشوائي حتى وصل تحليل بعض أهل القلم الى اننا قتلة بالولادة والجينات بل ان الشمس الحارة هي من الاسباب، وان شِعرنا - ليس الكولونيل ستيل وغيره - العربي القديم هو السببب في القتل كما في مقال لروائية عراقية. أبعد من ذلك، عندما لم نعد نجد تفسيرا، لأن العقل

العربي والعراقي عقل شعاراتي ظاهري، يؤمن أن الواقع الحقيقي هو الذي يراه وليس المختفي والمستور، هللنا، طرباً، لصناديق الاقتراع، بل ذهب البعض على عربات المعاقين، جسديًا.

ستيل، الآن، بعد ان منح نوطين للشجاعة بعد العودة من العراق المخضب بالدم، يشرب الويسكي ويضحك، وهو يرى اننا لم نعرفه لا بالاسم ولا الصورة ولا الفعل ولا الدمار الحاضر والمستقبلي، لكننا نشاهد الحرائق والجثث والانقاض، وهو الغائب الحاضر لأن النار التي أشعلها مستمرة وقد تشتعل يوماً حسب قواعده نفسها في اية لحظة.

٣

كما فعل أوين بريك اتجهت نحن المطبخ لاعداد القهوة في الصباح لكن الثلج يهطل عبر النافذة، في تلك اللحظة يرى بريك سرباً من الزرازير يدخل حقل الرؤيا. هنا لا شيء غير البياض وموسيقى أغنية بصوت هادئ تنبع من غرفة ابنتي في الطابق الثاني للمطربة سيلين ديون كما لو اننا في عالمين وليس في طابقين.

لم يخرج أوين بريك من حفرته رغم الليل لكن الفارق الآخر انه لا يكف عن طلب الاستغاثة في حين ان ذلك انتحار لو طلبت مساعدة في هذه المنطقة المحرمة بين جيشين التي لا تفسير لوجودي فيها غير الهروب من الحرب. هو يسمع زعيق طيور متقطع وحفيف ريح في حين داخل الحفرة الموحلة لم أكن أسمع شيئاً في الوقت نفسه كانت قنابل المدفعية والرصاص تمر من فوقي. لقد أصبحت خارج العالم وفي عراء موحش وعزلة باردة.

في الصباح يوقظه رجل من فوق الحفرة جاء لمساعدته ومن خلال حبل يتمكن بريك من الخروج من الحفرة.

« ماذا أفعل هنا؟ يسأل بريك».

« تماسك، ياولد، أنت تخوض حرباً. ماذا كنت تحسبها؟ رحلة الى الملاهي؟».

« أية حرب؟ أيعني ذلك أننا في العراق؟»

« العراق؟ من يكترث بالعراق؟

« أمريكا تخوض حرباً في العراق. الكل يعلم بذلك».

« سحقاً للعراق. هنا أمريكا، وأمريكا تقاتل أمريكا».

« ماذا تعني؟»

« الحرب الأهلية يابريك. ألا تعلم شيئاً؟»

يخبره الرجل المنقذ في ان القيادة كلفته بمهمة اغتيال مؤلف هذه الحكاية عن الحرب، ومن دون قتل الرو ائي لن تنتهي الحرب، يسأل بريك:

« ولماذا يستحق هذا الرجل القتل؟».

« لأنه يمتلك الحرب. هو من اختلقها. وكل ما حدث الآن وما على وشك أن يحدث، من رأسه. ألغ ذلك الرأس، تتوقف الحرب، هذا بكل بساطة».

٤

قبل منتصف الليل، الثلج يهطل عبر النافذة، أحاول استعراض حياتي لكن البداية دائماً صورة مركبة لحياة لم تكن لحظة واحدة فيها اختياراً حتى لو بدت كذلك لأن الخلفية إما حرب أو سجن أو تشرد أو منفى، والحياة الخاصة غائبة تماماً، لو حدثت لحظات ستكون مختلسة. كنت أفضل أن أعيشها لوحدي رغم الحاح ابنتي في حكايات و اقعية وحتى لو حدث ذلك فستبدو حكايات لاو اقعية بل نتاج خيال جامح حتى لي عندما استعيدها في مكان آمن ونظيف ومسالم. صعدت السلالم الخشبية الى غرفتها وفتح الباب للأسود على الملعب الروماني وعلى أن أروى على خلفية ثلج هاطل وبرق يضرب النافذة. في الأفق الرمادي، تلوح أشباح الماضي، مضيئة تحت الوفر الثلجي وكان يلوح في البعيد برج طاحونة قديمة تغطيها نوارس البحر وشمس منتصف الليل تنعكس على جدرانها الحجرية.

تقول:

« حكاية و اقعية كما عشتها».

"كان يا ما كان في قديم الزمان تمساح يعزف البيانو".

صرختْ بي:

«لا تكذب، تمساح يعزف البيانو وفي قديم الزمان ومتى تم اختراع البيانو؟".

وتجيب على سؤالها:

" اخترع البيانو الإيطالي بارتولوميو دي فرانشيسكو كريستوفوري، الذي وُلد عام ١٦٥٥م في منطقة تُدعى بادوفا في إيطاليا".

أنا نفسي فوجئت من هذه المقدمة المرتجلة الغريبة لحكاية آخر الليل لابنتي، ربما تحت تأثير النعاس خاصة بعد منتصف الليل، وبعد ساعات من الكتابة الخاصة، وفي أوقات الثلج المنهمر عبر النافذة، في الغابة المجاورة وأمامي على السجادة الصغيرة ينام القط أو يتظاهر بالنوم بكسل وفي لحظات ينقلب وينظر إليّ كما لو أنه يخاف أن أهرب منه.

وجدت صعوبة بالغة في شرح مفهوم التخيل الذاتي autofiction وهو من مزج السيرة والحكاية ويتارجح بين الواقع والخيال، وقد يصعب على القارئ غير المتخصص فهم نصوص التخيل الذاتي عندما يفسرها من زاوية الواقع والصدق والكذب وهو ليس المعيار

الصحيح، لأنه من المستحيل حتى في أدق الكاميرات الحساسة نقل الو اقع كما هو، وهناك الظلال الخفية والمشاعر والعواطف والانفعالات التي لا تظهرها الصورة، فالعالم الذهني والنفسي للشخص لا يتطابق مع العالم الو اقعي غالباً، وقد يتواجد عدة أفراد في صورة فوتوغر افية، لكن كل وحد منهم في وضع تخيلي داخلي مختلف، وهذه بهجة وميزة الأدب والفن ليس وصف الو اقع كما هو، بل الو اقع المخفي أو خلق الو اقع الموازي، وأول من نحت هذا المفهوم هو الناقد سيرج دوبروفسكي، حيث الذات حاضرة في الو اقع لكنها في الوقت نفسه في مكان أو فضاء آخر لكن كيف تشرح ذلك لها وهو مفهوم ملتبس ويستعصي حتى على المحترفين؟.

قلت للتبسيط:

" بابا الو اقع ليس كما نراه بل يتنكر بأقنعة وبر اقع، ما يظهر منه سطح الو اقع وليس الو اقع نفسه ويتنكر بالشعارات والحفلات والخطابات والبرامج والصور"

شعرت بها تتململ وقالت:

" كيف يتنكر الو اقع؟"

" كما تنكرت أنت يوما بنقاب مغربي مستعار ودخلت علي في

الشقة المغربية ولم أتعرف عليك إلا من عيونك بعد لحظات".

وجرت حسرة «ونّة» عادتها عندما تغضب وقالت:

" لو أستطيع فقط التخلص من عيونك الملتصقة بوجهي، اشرح لي كيف يتنكر الواقع؟"

" يوما جلسنا أنت و أنا في مطعم تركي على بحر مرمرة قبل شهور، صح؟"

" صح، وكنت أنت تنزع الحذاء الرياضي وظهرت أظافرك كمخالب ذئب كما لو أنك في خندق حرب. صح؟"

تجاوزت التعليق وقلت:

" طلبت منك وصف ساحل مرمرة، ووصفت كل شيء كما هو لكنك تجاهلت ماذا يدور في أعماق هؤلاء".

" أريد مثالاً آخر"

" طيب كنت أجلس معك ونزعت حذائي، لكني كنت سارحاً في مكان آخر و انت ترين الأب فقط...».

قاطعتني بغضب:

" ولا أرى العاشق. صح؟"

توجست من اندلاع زوبعة عاصفة ولم أعلق لكنها تابعت بلغة ملغزة:

" ومن غرفتي أسمعك منتصف الليل تردد:

" يا حضيري بطل النوح، نوحك كتلني، لمن هذا النشيد حضرة الأعزل؟"

صعقت من السؤال وقلت:

" بابا هذا نشيدنا المدرسي للمطرب الثوري داخل حسن يوم كنا أطفالاً و أنا أردده في الحلم".

" لا تكذب ،وأغنية نجاة الصغيرة التي ترددها في الصالة وحدك: ارجع إلي صحواً كنت أم مطراً. فما حياتي أنا إن لم تكن فيها؟ هل هو نشيد الذهاب للحرب؟".

" هذه الاغنية تذكرني بزمن قديم يوم كنا نعتقد ان الحياة نزهة في حديقة ثم من قال لك انني نزيل دير للرهبان؟ هو قلب لو خشبة؟"

" ماشي".

كأفعى كوبرا مستفزة رفعت رأسها من الوسادة:

" أريد حكاية و اقعية عشتها بنفسك".

" لا تساعد حكاياتي الو اقعية على النوم، ولا تساعد على الحياة وتركتها خلفي".

" معك حق لكن هل صحيح، بابا، أنك عبرت حقول الألغام وهربت من الحرب؟"

استدراج ماكر فقلت:

" كيف عرفتِ؟"

" أنت بنفسك قلت لي مرات، وذكرته في سيرتك» الأعزل" هل نسيت؟ وسأترجمها لك يوماً"

لكي أغير الموضوع قلت:

«ما معنى أعزل في اللغة النرويجية لم أجدها في القاموس؟"

فكرتْ وفتحتْ القاموس:

" يوجد المجرد من السلاح، المسالم، والمعنى الذي تقصده كما أظن، لكن غلاف الطبعة النرويجية للأعزل وضعت تحت العنوان العربي كلمة: Vergeøls ".

قلت مبتهجاً وقد خرجنا من عالم الكوابيس الو اقعية:

" هذه الكلمة هي الأقرب كما أظن وتعني المسالم،

لكن كلمة أخرى نرويجية هي Forsvarsløs"، ربما تعني بالعربي الذي لا حول له ولا قوة، لكن ليس هو المرادف الدقيق".

كان الثلج ينثال عبر النافذة وتتطاير نتف منه في الريح لكن الغرفة دافئة وخفت من صمت طويل لكي لا تعود الى طلب حكاية و اقعية.

فقالت:

" ماذا تقصد بالضبط بالأعزل؟".

شدّدتْ هي على كلمة بالضبط بقوة وقلت:

" هو ليس المجرد من السلاح ولا المسالم فحسب،

قد تكون هذه إحدى صفاته لكنه المجرد من الدناءة، البريء، والقوي، غير الشبيه، المختلف، المؤمن بنقاء القلب البشري وضحية هذا الاعتقاد لذلك تصدمه الخسة والخديعة، لا أسلاف له في الثقافة ولا جذور،

هو خلق نفسه من البياض وغرز جذوره، لم يلده أحد، يتيم التاريخ، ولد من رحمه".

بدأت تتثاءب لذلك كان علي أن أستمرفي هذه الرطينة حتى تصاب بالاعياء أو الإغماء وتنام، لكنها أفاقت كحيوان شم رائحة الخطر، وقالت:

" لو عدنا لحكاية التمساح الذي يعزف البيانو أحسن

من هذه الرطينة لكني بدأت أشعر بما تعني"

" كيف شعرتِ؟"

" مرة رويت لي حكاية مشكين» الأبله لديستوفيسكي وكيف كان بريئاً ونظيفاً وهو أبله من وجهة نظر الناس، لكنه صريح ونظيف ويحب أن يخلق السعادة للجميع الأصدقاء والأعداء، لكنه عانى كثيراً من مجتمع مقنّع وعندما يقول للأصدقاء ما قالوه عن بعضهم يغضبون منه، وكان عليه إما يختار جحيم العزلة أو يعيش في عالم الأقنعة".

مع أن رواية «الأبله» هي أهم عمل لديستوفيسكي، لكن روايته «الجريمة والعقاب» و«الأخوة كارامازف»، و«ذكريات بيت الموتى» غطت عليها، وليس من الغريب أن عالم النفس الشهير فرويد كتب عن ديستوفيسكي في كتابه«التحليل النفسي والفن"

يقول:

" يمكن تشخيص سمات دوستوفيسكي الفنية بناءً لهذه السمات: الفنان المبدع، والإنسان الأخلاقي، والعصابي".

يتساءل فرويد بدهشة:

" كيف إستطاع وسط كل هذا التعقيد المحير، أن يجد طريقه؟".

يعترف فرويد إنه وصل للعديد من الاستنتاجات بناء على رو اياته العميقة.

لمعان البرق ينعكس على النافذة، تجفل من خوف بدائي لأن نصف الانسان ما يزال في الغابة، وفي ظلام القرون وهو لم يخرج لعالم الضوء إلا قبل وقت قصير من عمر الزمن وقالت:

" لم أجد شخصية الأعزل في النرويج ".

" لأنكِ في مجتمع الحرية ويحترم الاختلاف، والفرد هنا لا يؤمن بشيء ويفعل عكسه، وليس محتاجاً للقناع والتمثيل والتخفي، هو في الداخل مع نفسه كما في الخارج مع الناس، عادة شخصية الأعزل تظهر في مجتمعات القمع".

طيف هادئ من نعاس رقيق ينزلق فوق وجهها كظل ناعم، وشعرتُ أنها تغرق في النوم. قبل أن أغلق ستارة النافذة وأهبط من غرفتها في الطابق الثاني، و أتسلل كلص فوق السلالم على رؤوس

الأصابع سمعتها تقول:

" أشكر القمع الذي خلق لي هذا الأب".

« بابا، الحياة ليست نزهة في حديقة» (١).

هبطتُ بحذر واحتراس وبعد ثلاث درجات جاء صوتها عميقاً بنعاس ثقيل:

" مع أنني لم أنم لكن يمكنك الذهاب لتمساحك قبل أن يكسر البيانو".

هامش:

(١) عبارة «الحياة ليست نزهة» للروائي بوريس باسترناك طلب وضعها على شاهدته الرخامية يوم طرد من اتحاد الكتاب السوفييت لانه ليس ببغاء في قفص لفوزه بجائزة نوبل عن رواية «الدكتور زيفاغو» التي فسرت على انها نقد للنظام واضطر لرفض استلامها وسط حملة تخوين غوغائية وعاش في عزلة في قرية ويوم مات تولى عدد من ريفيي المنطقة استعارة مسجل وشريط كاسيت لموسيقي جنائزية للموسيقار باخ ودفن تحت المطر.

٥

نحن لا نشيخ بفعل الشيخوخة، ولا بسبب السنوات التي عشناها، بل نشيخ من جرَاء التعب، وبسبب الإهانات والآثام، بسبب فقدان الأمل في الحياة، وبسبب ذلك الصخب اليومي، بسبب الهموم التي تتضاعف وحسب، نحن نشيخ قبل الأوان لأنَّ أرواحنا تُصاب باليباس». يفغيني يفتوشينكو

الرجل العسكري الذي أنقذ أوين بريك من الحفرة ونقل له مهمة اغتيال المؤلف يشرح له عن الروائي الذي يجلس في غرفته ويكتب وكل ما يكتبه يظهر الى حيز الواقع و» تقارير الاستخبارات تقول إنه منقاد في غيه، ولا يمكنه أن يوقف نفسه، لو انبرى الشجعان لابن الحرام هذا ونسفوا دماغه، لما كنا الآن نخوض هذا الجدال».

« وبعد أن يُقتل، ماذا سيحدث. ستنتهي الحرب، وماذا بشأننا؟»

« سيعود كل شيء الى مجراه الطبيعي». من الرواية.

لكن الشاعرة الامريكية جنيفر ميدن تقول عكس ذلك خلال حرب الكويت عندما قامت القوات الامريكية بدفن آلاف الجنود العراقيين، أحياءً، بعد وقف إطلاق النار من خلال جرافات تنفث

رملاً من مسافة نصف كلم وكانوا يرفعون الر ايات البيض فرحين بنهاية الحرب. كتبت جنيفر ميدن:»دفن قبل الأوان“

« إنه دائما من سوء الذوق تذكر مأساة دفن الجنود العر اقيين أحياء بواسطة كاساحات رمل غمرت ملاجئهم بالتراب والذهول والصمت عام ١٩٩١»، فإن هذا يعني عاشت تلك المحنة المروعة التي لا يقدم عليها غير وحش خطير يحتاج إلى عمل دولي ضخم لأعادته إلى المشفى أو السجن أو الغابة أو الكهف.

فُتح الباب في الطابق العلوي. خطوات تنزل الى غرفة الجلوس. ليست خطوات ماريام المتعجلة ابنة أوغست بريل بل خطوات ابنتي من خطواتها الهادئة المتريثة لأن الاستغراق مع رو اية « رجل في الظلام» جعل من الصعب عليّ الفصل بين الو اقع والمتخيل بل أين حدود هذا وذاك؟

كانت حكاية الليلة الماضية عن حفلة دفن الجنود أحياءً بعد أن صارت طالبة في كلية العلوم السياسية، فرع الشرق الأوسط، لكنني أفضل ألا أروي لها ما حدث في ساعة متأخرة من الليل رغم إصرارها وعنادها وقولها انها قادرة على تفهم هذه الوقائع من دون توعك لكن باهتمام بالغ.

٦

«سيد قصر الأشباح»

يجب أن يكون هناك شخص واحد على الأقل تذهب إليه حينما لا تعلم إلى أين تذهب“ *فرانز كافكا.

بعد الانغماس في احداث عامة، أفقت على و اقع مختلف وحياة أخرى حتى لم أفطن لتغير التوقيت النرويج وتعاملت حسب التوقيت القديم لأني في توقيت آخر، أخبرتني فريدة من العراق برسالة برفع حظر كورونا في النرويج منذ اسبوع و أنا الوحيد الذي أستعمل قناع الوباء. كل ما هنا لا يشبه هناك: الألوان الخريفية المتوهجة والمحترقة، ولادة أزهار جديدة وذبول أخرى، عودة القط الغائب بجرح عميق، هجرة الطيور نحو الاماكن الدافئة ومنها طائر المنزل والعودة في الربيع الى العش الصناعي نفسه قاطعاً البحار والصحارى والقارات والعواصف بحبة قمح أو ثمرة باجهزة رادار طبيعية في جسده متصلة بالمجال الكهرومغناطيسي للأرض تدله على الطريق الصحيح، رائحة شتاء وشيك وثلج يقترب، حقيبة السفر في مكانها جاهزة كفرس،

جارتي توقفت عن أغاني سيلين ديون بعد عودة الحبيب الغائب في قوات الطوارئ الدولية، عاد كئيباً من بضعة شهور سياحية في جنوب لبنان في أجمل بقاع العالم وأشجاره وطيوره وغاباته، في حين على العراقي في عدة حروب وحشية ولسنوات عليه البقاء متوازناً كصنم في ساحة حرب ولو اضطرب قليلاً وهي صفة الانسان الطبيعي المبتور الذات والاحلام والامكنة تنهال عليه المعارات في مجتمع مريض والمعافى فيه هو المريض الوحيد. زرقة البحر العميقة والجبال البعيدة غارقة في الضباب الاسكندنافي، صوت تكسر أوراق الخريف على وقع أقدام الغزلان. خلفي غابة غزلان وفي الذاكرة غابة قتلى.

هنا بحر أزرق وهناك دم: لست هنا ولا هناك. لكن غير المتوقع عثوري على رو اية «القصر» أو القلعة لفر انز كافكا على الطاولة بنسخة ورقية نرويجية، وبما أننا نعيش في عالم كافكوي وكل شيء فيه محتمل، لم أسأل من وضع الرو اية التي قرأتها مرات وفي كل مرة أكتشف جديداً.

يتلقى المساح.ك. دعوة للحضور الى قلعة أو قصر في قرية للعمل كمساح ويصل في مساء شتائي، لكنه لم يلتق بسلطة القصر أو الرجل الغامض الذي يدير شؤون البلدة ويتحكم بها من خلال وكلاء، لكنه هو لا يظهر ومن النادر أن يراه أحد وفي الو اقع كل شيء

يتحرك بأوامر منه. هذه السلطة الشبحية التي تحرك الناس بالأوامر من خلف مكتب رمادي غامض وجامد، وتعيش في عزلة لكي تحافظ على المسافة بينها كقوة مطلقة وبين الناس الفانين، تثير الخوف والرهبة والاحترام في نفوس الناس، لكن من هو سيد القصر؟

قلة يعرفونه ويلتقون به ويحملون أوامره، يفشل.ك. في مقابلته وبعد انتظار طويل وملل لأعوام تأتي رسالة من سيد القصر تقول له إن الدعوة التي وصلتك للعمل كانت في الحقيقة خطأ ولم تكن أنت المقصود، لكن « يمكنك العيش هنا":

عبارة عادية لكنها قاتلة: يمكنك أن تعيش بلا أمل ولا هدف بعد كل سنوات الانتظار هو الموت المتدرج. هكذا هو عالم سيد القصر: شبحي ورمادي وو اقعي، لكنه ساخر والعبث فيه أقرب الى الجنون، وكافكا من بين كل كتاب العالم هو من اكتشف كيف تحتجب السلطة وتختفي سواء خلف اسوار قصر أو مكتب رمادي بلا شاعرية لكنه يختزن فيه القوة والجنون أو تحتجب خلفه شعارات وحفلات وخطابات في حين الو اقع الحقيقي في مكان آخر ومحجوب ولا يظهر سوى السطح الخادع. فريدة من لفت انتباهي الى رو اية منتحلة من قصر كافكا من رو ائي سعودي عندما كتب رو اية نسخة طبق الأصل من قصر كافكا (فازت بجائزة البوكر) فوضع سيداً سعودياً في مكان غير معلوم في جدة كما في قصر كافكا، وهذا السيد الغامض والشبح

هو الذي يدير كل شيء، دون أن يظهر لكن عبر وكلاء في قصر مسور ورمادي هو قصر كافكا.

وجد الروائي بناءً روائياً جاهزاً وكل ما قام به هو تبديل مواقع النوافذ والشرفات لاخفاء الأثر كما يفعل مهندس معماري في العثور على مخطط جاهز لعمارة، وبكل بساطة حصل على جائزة بوكر العربية العالمية كما توصف عام ٢٠١٠ وترجمت الى الانكليزية من قبل المترجمينماية تابت وميايكل سكوت وتنشرها مؤسسة بلومسبري للنشر في سنة ٢٠١٢ وهو نص منتحل وحتى سيد القصر لا حضور ولا اسم له ولا ملامح كسيد قصر كافكا والقصر في الحالتين خارج المدينة ومنعزل للرهبة ومحروس، وفي قصر كافكا المساح من يروي وفي قصر السعودي الخادم من يروي، كلاهما هامشي.

حين مات كافكا مجهولاً ولم تنشر رواية واحدة في حياته بل طالب في أيامه الأخيرة من صديقه ماكس برود ان يحرق بعض اعماله وهو على سريره الأخير ولم ينفذ الوصية لكنه شوه كافكا و انتج له صورة ملفقة عن شخص عصابي ومريض نفسيا كنبي توراتي تنسجم مع عقلية ماكس برود الصهيوني وهو ما كشف عنه الروائي ميلان كونديرا التشيكي مواطن كافكا ووصف ماكس برود بالسوقي والنصاب والفاشل الذي سوّق أشهر كذبة في تاريخ الأدب لأسباب شخصية وعنصرية واستغل عزلة كافكا عن النخبة الادبية، مع أن

كافكا مرح وعاشق وطفل ورسائله الى ميلينيا تنضح بالجمال والحب والنزق الطفولي: «إن كنتِ مجرد جثة فأنا أُحبك» في نخبنا أكثر من ماكس برود و أقل كفاءة ويستطيع أن يتحكم بالنخبة كخاتم كما حدث عندما تم الاحتفال بنصاب أمي في أمسية أدبية في بغداد كشاعر وروائي ومؤرخ لشعراء المنفى وهو لم يدخل مدرسة في حياته وتعلم القراءة في حملة محو الأمية وهرب من العراق بعد سرقة متجر وصار مؤرخ شعراء المنفى من خلال كتاب مزور بعنوان» الحياة في الحامية الرومانسية» ولم يكن سوى مرتب طاولة السمر لبعض الشعراء وطباخ أحدهم ومنظف منزله بر اتب شهري ونسب له بعد موته ما لم يقله.

عندما مات كافكا لم يكن هناك من يعرفه أو يكتب نعياً سوى ميلينيا بعبارات مليئة بالحكمة والجمال والاختزال تليق بها في جريدة قائلة: « توفى قبل أمس كافكا، قلة هم من يعرفونه لأنه كان منعزلًا، حكيماً يهاب الحياة، كان خجولًا وطيبًا، لكن الكتب التي كتبها قاسية وموجعة، هو أحكم من أن يعيش، وأضعف من أن يقاوم، لكن ضعفه هو ضعف أولئك المرهفين العاجزين عن مواجهة الخوف وسوء الفهم وعدم التقدير والخداع».

المشكلة ليست هنا ولا من وضع الرو اية أمامي، نحن نعيش في عالم تحكمه الأشباح الو اقعية، هناك دائماً سلطة غامضة مختفية

تحكم من خلف وكلاء، وهي أكثر السلط نفوذاً وسيطرة: لا يظهر سيد القصر عادةً للجمهور العام، الاحتجاب والتخفي والغموض ضروري للرهبة والطاعة لقصر أو زاوية أو تكية أو قلعة أو محراب أو صومعة، لا يجوز للعامة التفرج على البشري في حركات سيد القصر، لا يمكن رؤية العجز ولا إظهار الضعف، هذا مخالف لأخلاق السلطة بالمعنى الواسع وليست السلطة السياسية فحسب. الاحتجاب قوة لكن لا يجب أن يكون طويلاً، مع طقوس مستمرة للحضور المضاد للنسيان ومخاطر الركون للرتابة لكي لا ينسى الجمهور سلطته الغامضة وعليه اختيار مناسبات كي يظهر الوكلاء ينقلون للناس ما يدور في عقله وكل ما يهم الجمهور ليس الحضور الجسدي الفيزيائي لسيد القصر أو القلعة أو الصومعة بل حضور القرارات والوصايا والأوامر، فقوة سيد القصر ليست في الجسد الضعيف بل في الخطاب وغير مهم المعنى والحقيقة في الخطاب بل المعنى في خطاب القوة وليس في قوة الحقيقة وهذه الأوامر يجب أن تصل وتنتشر بين الجمهور، الى الجمهور الغائب عن القرار والفاعلية وقصر السيد الغائب والمختفي هو الحاضر.

وكما في سيد قصر كافكا هناك وكلاء لسادة قصور سلطة الاشباح في كل مكان، ومن العجيب كما في وكلاء قصر كافكا لا يقوم الوكلاء أحياناً بنقل الأوامر كما هي، ولا نقل الحقائق للسيد القابع في عزلته

خلف الجدران، والنتيجة يكون « سيد القصر» ضحية العزلة والوكلاء، ونكون نحن ضحايا الإثنين،

ضحايا الوكلاء وقلعة السيد. أي تشابه بين قلعة كافكا وقلعة أخرى محض مصادفة.

أين كنت؟ مع بول أوستر؟ أم أوغست بريل؟ أم أوين بريك؟ أم مع سيد قصر الأشباح؟ أسمع خطوات ابنتي تصعد درجات السلم الخشبية ثم تنعطف في السلم الملتف وتتوقف. سمعتها تقول إن العاصفة الثلجية هدأت وعرفت انها تحاول تحفيزي على الخروج وهي ليست مغرمة بالافلام كما ماريام في رواية رجل في الظلام ولا يعني ذلك اني حكمت عليها بشخصيتي. صحيح لم أشجعها على حياة مسطحة عكس ما فعل بريل ونحن نتحدث كلما سمحت الظروف وهي تريد ان تعرف من أنا وكيف عبرت كل تلك الأهوال لكي أصل الى هنا واحتفل بالتفاصيل الصغيرة بسعادة غامرة. كنت أسمع أصوات بعيدة لم أعد أميز للأحياء أم الموتى.

في الطريق يسأل بريك نادلة المطعم مولي عما إذا كانت الحرب في العراق قد وقعت أم لا؟ فترد عليه:» إذا كنت تعرف الجواب، فلماذا تسألني؟»، يقول: « كان علي أن تأكد».

أفتح بريدي الالكتروني وأجد رسالة من فريدة تقول:

« لا أستطيع منع نفسي في قضاء ليلة في العراء الأبيض في الصحراء العر اقية معك حتى صارهذا هاجساً».

« لا تقلقي سأفكرفي الأمر».

٧

« أطفئ النور، وها أنا في الظلام من جديد ، غارقاً في الظلام اللانهائي الذي يهدئ الروع، في مكان ما من المدى البعيد، يترامى اليّ ضجيج شاحنة تنحدر على طريق ريفية مهجورة» ـ رجل في الظلام».

رغم شمس منتصف الليل، لكن الستائر الرمادية السميكة تمنح الغرفة جواً ليليّاً لكن ليس الظلام اللانهائي بل العتمة الهادئة، ومن قلب العتمة و أنا أستلقي في السرير بزغت حكاية من زمن قديم لكنها تلوح، الآن، كصور تنبثق من السراب الأبيض، وأغلقت روا ية بول أوستر عند الصفحة ٦٥ عندما قرأت آخر عبارة تقول: «الأوصال المقطوعة في أفريقيا، الأوصال المقطوعة في حرب العراق، وفي رأسي حرب أخرى من بنات الخيال».

لو كنت مؤلف روا ية رجل في الظلام، لأضفت عبارة «الأوصال المقطوعة في غزة، العراق، سوريا، أفغانستان، اليمن، ليبيا» في مشاهد علنية مفتوحة تنذر بولادة وحش بشري لم يغادر عصور الديناصورات. غرقت في حكاية أخرى قبل النوم: كانت تمشط شعرها أمام المرآة الكبيرة في صباح صيفي مشرق ولا تعرف أن قرار قتلها سينفذ في الدقائق القادمة وكانت على قول صديقة لها شاهدتها

في اللحظة الأخيرة تدندن سعيدة باغنية، وتكاد تحلّق في الغرفة بفستان ربيعي مطرز بالزهور وفوقه عصفور صغير ولم تكن سوى كونها تعيش خيبات حب متكررة في جمال صارخ، وكلما صادفتها في الشارع تشرع بالترحيب ولا أشك لحظة في أنه صادق ونظيف. كانت المنظمة الحزبية قد استدعت إخوتها الثلاثة وبالإيحاء والتحريض، طلبوا منهم قتلها غسلاً للعار لانها تسيء للعائلة والمجتمع في زمن الحرب كما لو أن الحرب العبثية ليست عاراً تركت كوارث كثيرة مستمرة ومهدت لخراب اليوم، مع أننا لا نعرف شيئأ عن حياتها الخاصة.

مفهوم العار يحتاج الى تفسير أوسع وأدق من موضوعه الضيق عندما يتعلق الأمر بامرأة يتحول الجميع بما في ذلك بعض النساء الى ذكور، لأن القيم والقواعد المستعملة قيم ذكورية وتربى عليها النساء، لذلك نحن نتربى من ذكرين لأن أغلب الأمهات يستعملن مفاهيم ذكورية. الأشقاء الثلاثة أحدهم قصاب نذل والثاني نادل مقهى خمار والثالث مأبون بصورة علنية ومعروف في البلدة، أوكلت المهمة للمأبون في ادعاء القتل لكي يبرئ ساحة الاخوة، وسوف لن يسجن سوى فترة قصيرة. من العبث البحث عن أسباب منطقية للقتل تلك وهذه السنوات وقرارات إعدام مرتجلة تمت لاسباب عبثية مثل» الشك في الولاء» بلا أي تهمة كما حدث عام ١٩٨٠

خلال الحرب مع إيران حيث تم إعدام الالاف لمجرد الشك في الولاء كما كشفت الوثائق في توجيه رئاسي الى دوائر الامن يحمل عنوان» حسب السياق: ق. د» أي الاعدام لمن غير المرغوب فيهم كفائض بشري يجب تقليصه أو في قرار آخر عام ١٩٨٥ موجه للوحدات في الخطوط الامامية يقول» أرسلوا لنا أسماء أسوأ السيئين لغرض إعدامهم» وهؤلاء جنود في حرب في الخطوط الامامية ومن يحدد السيئ؟ وما هي المعايير؟

كان جميع سكان الشارع قد تجمعوا ذلك الصباح في أمكنة متفرقة ومن الأبواب والنوافذ ينتظرون وصول القتلة، كان الجميع يعرف ساعة القتل إلا هي. الأمر يشبه رواية غابريل ماركيز قصة موت معلن، التي استند فيها الى قصة حقيقية وقعت في كولومبيا، عن مقتل نصار العاشق من قبل إخوة الفتاة وحددوا الموعد غداً، كان الجميع يعرف بموعد الجريمة عدا نصار الذي خرج ذلك اليوم أنيقاً معطراً لكي يُقتل أمام الجميع الذين يطلون من الشرفات في انتظار الجريمة، وهذه هي الجريمة المتواطئة حيث الشهود جزء من القتلة.

كانت قد انتهت قبل ربع ساعة من تمشيط شعرها، وكانت صديقتها قد خرجت لتجد تجمعات متفرقة تنظر نحو الباب، لكن أحداً لم يخبرها بشيء، وربما كان تسريب الخبر مدبراً لغرض ما من

منظمة الحزب لكي تكون الجريمة علنية، وفي اللحظة التي كانت تنظر للمرة الأخيرة في المرآة، شاهدت الإخوة الثلاثة بالسكاكين التي تبرق تحت شعاع الشمس، وعندما التفتت كحيوان مذعور، تلقت أول طعنة في الخاصرة من المأبون، فذكرته بماضيه وقررت خوض معركتها الأخيرة بشراسة لبوة مداهمة وتحول كل شيء في الغرفة الى سلاح، المرآة والملابس والأظافر والأحذية، لكن الثلاثة أحاطوا بها كالضباع، ولم يعد هناك في الجسد مساحة فارغة بلا طعنة، وكان الناس في الشارع في صمت القبور، لم يتحرك أحد أبداً بل كانوا ينتظرون نهاية وليمة القتل. القتلة ثلاثة لكن الشارع الصامت شريك.

وصلتُ في اللحظة الأخيرة وكنتُ ماراً في الشارع،

سألت صديقاً مع الجمهوروهوكاتب أيضاً عن ما يحدث، فأخبرني بكل شيء. تلك اللحظة فكرت بروا ية زوربا لكازنتزاكي ومشهد قتل الأرملة الذي لم يتحرك الكاتب لنجدتها لكن زوربا اندفع رغم فوات الأوان وهو يقول:

"كان عليك أن تتحرك يا قارضة الكتب".

شاهدت الثلاثة يخرجون بسكاكين مدماة، غسلوا العار، جاءت سيارة البلدية وحملت الجثة التي كان مرورها في الشارع يضج بالبهاء

والضوء والعطر، وتركوا الجثة ثلاثة أيام فوق مزبلة خارج البلدة.

في عام ٢٠١٩ وفي اضطرابات تشرين شاهدت القاتل يتقدم الجموع وهو يهتف بإسقاط النظام. مشهد يفتقر لمهابة السخرية.

قبل غابريل ماركيز كان الكاتب الالماني فريدريش دورينمات Friedrich Dorinmat قد كتب مسرحية"زيارة السيدة العجوز" وحمّل المجتمع بأسره كوارث الحرب من خلال حدث عندما استطاعت سيدة عجوز شراء ضمائر سكان البلدة بالمال للانتقام من رجل بسبب علاقة حب فاشلة،

لأن الصمت على جريمة هو شراكة.

لماذا لا يعتبر غياب العدالة والتوزيع العادل للثروة والسيادة الوطنية وغياب الحرية الحقيقية وغياب الامن والامان والدولة الوطنية. لماذا لا يُعتبر هذا وغيره عاراً يجب أن يُغسل؟ بعد عشرين سنة من الحادث بزغ ذلك المشهد في عقلي، وعندما كتبت رواية « المختفي» حضر المشهد بتفاصيل أوسع وتحررت الى حد ما من تلك اللحظات الخاطفة. الآن تطهرت المدينة من الاثم وعاد الكل أبرياء وملائكة، بعد أن تم طرد كبش الفداء نحو البرية، وهو تقليد بابلي عريق، بمقتلها تمت حراسة الشرف: هذا الاحتلال أقدم من تاريخه عندما تم تحويل الانسان الى حشرة زاحفة مفرغ من كل آدمية.

٨

" قلعة المنفى"

هذه الليلة قررت مشاهدة فيلم طروادة. تحكي احداث الفيلم عن حرب طروادة المذكورة في الأساطير الأغريقية الشهيرة. عن هروب هيلين مع باريس وانهيار مملكة طروادة من قبل سبارطة. قصة عشق أسطورية. عند سقوط مملكة طروادة واحتر اقها كان باريس مع هيلين ينظران الى القصر المحترق من بعيد لكن باريس يحتضن هيلين في قمة سعادته غير مبال بانهيار مملكة. لا أعرف السبب في اختيار الفيلم لأنني لا أميل الى الأفلام الملحمية الطويلة لكن المشهد الأخير فيه من التأثير العميق ما يجعله غير قابل للنسيان.

نهاية الفيلم شعرت بالنعاس ينزلق كضوء ناعم فوق رخام أبيض ولا أعرف إذا كانت ابنتي في غرفتها أم خرجت لأن السكون يعم المنزل عدا زعيق النوارس فوق السطح رغم الثلج العاطل.

في الحروب الطويلة تقع حوادث من النادران يذكرها المؤرخون والسبب إما أن الشهود قتلوا أو فقدوا أو عادوا أحياء محطمين نفسياً، أو أن التاريخ رواية رسمية، وبما أن السلطة أو الحزب الحاكم يسجل الحوادث ولو كذباً ، وبما أنها تدخل في سجلات ووثائق ومكاتب، فهي مع الوقت تصبح حقيقة بتعبير جورج أورويل، فمن غير المعقول أن سلطة مخيفة جبارة معترف بها دولياً تضع الأكاذيب في سجلات وقوانين لو لم تكن صحيحة ويشرف عليها جهاز وقور رصين من العاملين، واذا لم يصدق أحد أنها صحيحة يجب أن يصدق أو عليه أن يصدق، أو يتظاهر بأنه يصدق ومع الوقت والسنوات سيصدق لأن الدماغ لا يتحمل تكرار الاكاذيب طويلاً وتنفتح فيه ثغرات مع التكرار وهي نظرية في الحرب النفسية وفي الاعلام عندما تتم شيطنة جهة ما أو عدو كل يوم وكل ساعة في نشرات الاخبار بصفات سلبية مكررة حتى يصبح هذا الاسم مقترنا بالسوء والشر، وهي طريقة شائعة اليوم في القنوات العربية ومن تلك الحوادث ما حدث لنا نحن « جنود القلعة» أو « كتيبة الأهوال“ أو « المنبوذون» أو الحاقدون» وهي توصيفات ضابط الاستخبارات في الوحدة العسكرية، أبشع وجه بشري رأيته في حياتي، فاجر ومنحرف وسوقي وسكير في ملجأ خلفي متين ومؤثث كغرفة مرفهة أو مكتب، مع جندي خدمة مراسل غلام وسيم محنّى اليدين ومغناج، وعادة بعض الجنود الصغار في الحرب يتعرضون من الخوف والذعر لكل

أنواع الهتك الأخلاقي مقابل البقاء في الخطوط الخلفية كما تفعل القرود الصغيرة في الاقفاص بإدارة مؤخرتها للقرد الكبير خوفاً، كما لو أن الحرب ليست كافية لهتك الحياة، وهذا الجانب القبيح شائع في الحرب ومسكوت عنه، وهو اغتصاب مخفي ومعروف للجنود في حرب طويلة لسنوات.

جنود « القلعة» هي التسمية الرسمية لها في الوثائق والموقف اليومي، مجموعة جنود قرروا وضعنا كعقاب في أقرب نقطة تماس مع قاعدة للحرس الثوري لا تبعد أكثر من ٣٠ متراً، وكنا في خندق أرضي عميق وسقفه من سكة قطار الاهواز- حميدية ومن محطة جفير المدمرة شرقي البصرة، لذلك لا تنفع معه كل القنابل، كانت القنابل اليدوية تتدحرج وتنفلق فوقه ونحن نأكل أو نشرب الشاي بطمأنينة تامة أو نقرأ أو نسمع أخبار محطات عربية أجنبية، وهو فعلاً قلعة واسعة حشرنا فيه للتخلص منا وللانذار المبكر، كحاقدين أو مشبوهين سياسياً حسب تقارير أمن المنطقة التي يكتبها تافهون لأسباب تافهة وتوضع في سجلات وتتحول الى حقائق، مع أنه ولا واحد فينا نحن الخمسة جنود عمل في حزب سياسي معارض، أو فكر في ذلك أو حتى جال بخاطره وكل ما في الأمر يتحول نوع المقهى والأصدقاء والشارب والكتاب والشقيق الهارب أو المعدوم الى تهمة وهوية سياسية، وهي هوية مزيفة لكنها مهلكة وتتحول في أرشيف

السلطة الى حقائق قاطعة.

كان معنا الشاعر العراقي الشعبي حاتم النعماني مؤلف قصيدة» شكراً يا عمر» التي غناها ياس خضر وهو صديق رقيق ودافئ وخجول لكنه عاش صحوها، سكراً، كتب لي آخر رسالة قبل أن يموت قبل شهور في عزلة باردة «أحتاجك كأم وأريد أن أموت في حضنك".

حوّل حاتم قلعة الأهوال الى حانة، في حين تمكنت فيها من قراءة الأدب الغربي خاصة الرو اية الجديدة،

وكان رفاق القلعة يستغربون ذلك والقنابل اليدوية تتدحرج فوقنا أو الرصاص، حتى بزغت في دماغ حاتم فكرة في واحدة من تجلياته أن نعقد هدنة مع قلعة الحرس الثوري بصورة ما:

يكفون عن الرمي ونكف عنه في اتفاق ضمني، بل تبرع حاتم بارسال رسالة لأنهم من عرب الاحواز كما عرفنا من نداءاتهم لنا بالتسليم، وقذفها بحجرة والتفاوض على إنهاء الحرب في هذا المكان وعندما سألته:

" كيف بزغت هذه المجازفة الخطرة في رأسك؟"

" قرأت أن الجنود الألمان في الحرب العالمية الأولى كانوا في وضع مشابه مثلنا وبعد اليأس والارهاق والاستنزاف، قرروا عقدة هدنة

سرية مع الجنود البريطانيين والفرنسيين الأعداء في الخندق المقابل"

حدث هذا فعلاً ليلة عيد الميلاد ورأس السنة في ٢٤ كانون الأول ١٩١٤ عندما تبادل الأعداء سراً الهدايا التذكارية والخموروالسجائر بدل الرصاص والقنابل، ووضعوا اشجار الميلاد على الطرفين، وقد وصف أحد الجنود من قوات الحلفاء تلك الليلة:

" بأنها كانت الأجمل تحت ضوء القمر المنعكس في الثلج، أنهى الجنود الألمان ترنيمتهم وصفقنا لهم، ثم اعتقدنا أنَّه يجب علينا الرد عليهم بطريقةٍ ما، لذا بدأنا غناء ترنيمة أخرى، وسمعنا تصفيقهم لنا عندما انتهينا، ثم بدأوا غناء ترنيمة أخرى، وظلت الليلة هكذا".

تطبيق تلك المغامرة الخطرة يعني الموت والانتحار في حال الانكشاف، لكننا أجرينا في نقاشات مطولة تعديلات على الفكرة، في هدنة ضمنية تقوم على أننا نوقف الرمي والقنابل اليدوية مقابل أن يلتزم الطرف الاخر بذلك إلا في حال قدوم رقيب أو زائر للمراقبة

نصعّد الرمي من فتحات خفية ومتينة وهو ما فعله الجنود الالمان والحلفاء.في الحروب الطويلة يمكن التفاهم مع عدو بهذه الطرق، خاصة وقلعتنا أو منفانا لا يزوره أحد لأن رشاشات ثقيلة من موقع إيراني آخر موجهة ومركبة على الممر أو الخندق المؤدي اليه، ومن يخرج منه لأمر ما الى الوحدة يخرج زحفاً مئات الأمتار في الخندق

ثم ينعطف نحو خندق عميق أكثر أمنا يتقاطع معه كمتاهة وكذلك من يأتي للتفقد وعادة جندي استخبارات متذمر يقضي الوقت في احتساء الخمر والتدخين ويمضي قبل بزوغ الفجر ثملاً ليقول إن كل شيء على ما يرام في «قلعة العارسزية» وهو واحد من القاب ضابط الاستخبارات الصفيق الذي عند الاتصال وطلب الموقف يسكب أوسخ ما في اللغة من عبارات علينا يخجل منها زبائن وحثالات الحانات الرخيصة مع ان رفاق القلعة كانوا جميعا نبلاء ومهذبين ومثقفين.

كنا نحاول تعريف أنفسنا وتعريف العدو في حواراتنا في المنفى او القلعة: من نحن؟ هل نحن في وطن أم منفى؟ هل نحن جنود أم أعداء؟ أين هي الخطوط الأمامية في الأمام أم في الخلف؟ هل الحرس الثوري المقابل هو العدو أم ضابط الاستخبارات؟ بل أين هي الحرب في الخطوط الأمامية أم الخلفية؟ لم نعد عراقيين ولا حتى ايرانيين، فمن نحن؟ ما معنى النصر؟

أقذر اختراع لغوي في التاريخ هو كلمة نصر في هذا النوع من الحروب القذرة. لسنا في وطن ولسنا جنوداً ولسنا عراقيين ولسنا بشراً، وفوق كل ذلك مطلوب منا من خلال مكبرة صوت الطلب من العدو الاستسلام بين وقت وآخر،كان الرد التقليدي علينا هو

الرصاص أو الشتائم أو الضحك، وغالباً مكبر صوت وسورة قرآنية تتوعد الكفرة بالجحيم، مما دعانا مرات لمناقشة فكرة الجحيم:

" أين هو الجحيم إذا لم يكن هذا المكان؟"

وكانت الاوامر تقول:

" ردوا عليهم بخطاب مسجل للسيد الرئيس".

وكان هذا الخطاب تعذيباً نفسياً لنا وليس لهم وحفلة جلد ولم يقتنع به جندي في تلك الحرب بل وحتى كبار قادة الجيش الذين تمت تصفية الشرفاء والشجعان منهم بتهم واهية أو اغتيالات منظمة نهاية الحرب للتخلص من طبقة خبيرة بالحرب والسياسة وأكاذيب الرئيس تشكل خطرا على النظام.

لسنا في وطن ولا في منفى ولا في زمان ولا في مكان بشري آمن وعادل، نحن على الحافات وهو مصير الهامشي: لا يكون في حياة ولا حراً ولا سعيداً ولا آمناً، بل الطرد نحو الحافات الخطرة كضواحي مدن الفقراء.

مع الوقت والعادة والتكرار فهمت قلعة العدو الاخرى شروط الهدنة بلا بلاغة ولا رسالة بل الكف عن إطلاق النار، وإذا حدث، فلوقت قصير واستعراضي، بل كنت و اثقاً أننا نستطيع الذهاب إلى

أبعد من ذلك والسهر معهم.

اليوم الأخير قبل الانتقال الى مكان آخر، كان حزيناً لأننا تآلفنا مع المكان وهو حصتنا من العراق ولو على حافته. لم نطلق تلك الليلة رصاصة واحدة وهم كذلك في وداع صامت حزين مشترك سيفتقدوننا طويلاً كما نحن أيضاً كأعداء لطفاء منفيين أحياءً ومطرودين من الفرح والعدالة والمسرة والوطن كما كان التقليد البابلي وهو أول تقليد لكبش الفداء في التضحية بخروفين لكي تتطهر المدينة من الاثم: واحد للذبح الطقسي وآخر يطرد خارج المدينة حاملاً معه الخطايا دون أن يعرف المسكين السبب.

في الفجر كان علينا الزحف في الخندق ثم الانعطاف نحو آخر شعرنا أننا لا نودع عدواً بل صديقاً، ونحن في الطريق الآن الى أرض الوطن في معركة لا تنتهي إلا بالخراب. لسنا جنوداً ولا مواطنين بل أسرى عندما تتحول السلطة إلى ملكية عقارية، والناس والثروة كما اليوم الى غنيمة حرب من صنع عقل سياسي فارغ وأجوف ورث ومريض.

٩

صار اختلاق أو تذكر القصص طقسا يوميا لكني مثل أوغست بريل لا أعرف الى أين يقود ذلك، كما قال لويس بورخيس: نصفنا ذاكرة والنصف الآخر خيال. هل هي محاولة للهروب من الماضي؟ لم أشارك في صنع الماضي ولم يكن خياراً. هل هو الشعور بالندم؟ الندم على ماذا؟ يقول غاستون باشلار:» إذا ما تحررنا من ماضي الأخطاء، فإننا نلقى الحقيقة في جو من الندم الفكري، والو اقع أننا نعرف ضد معرفة سابقة». ماذا يفعل انسان وجد نفسه في مناخ الخطأ؟ أو في بركة وحل، هل يخرج بلا بقع؟ ثلوح هذا المساء ذكرتني بالعمة درخشان و انا على عكس أوين بريك الذي كلف بمهمة قتل الراوي لكي يوقف الحرب، وهو جالس يشرب القهوة أو النبيذ ، بل أحاول شرح ماذا كانت نتائج تلك الجو انب المخفية من الحرب. ليس الغرض قتل المؤلف بل قتل سبب الحرب.

يقع منزل درخشان أسفل جبل قنديل في قضاء جومان وتجاوره جبال كرده مند وجبل سكران المثلج حتى في الصيف وربما مُنح التسمية لهذا السبب وعلى الجهة المقابلة سلسلة جبال حصاروست

وقمة جبل هلكرد أعلى قممها.

درخشان فلاحة كردية تعيش مع ابنة وحيدة وبقرات في كوخ من الحجر منعزل بين الاشجار، وكنا نعيش كجنود في رابية عسكرية فوق الجبل وكان طريق النزول والصعود يمر من منزل درخشان ومعنى الاسم المشرق والباهر أو المضيء.

كانت تعرف حياتنا القاسية جيداً، معارك الليل والرصاص والوحل والثلج، وكانت الأوامر الصارمة ألا نحتك مع السكان، لكن ما الذي يجعل الاقتراب من درخشان أمراً خطراً؟

حاولت الاقتراب منها مرةً وكانت سعيدة والمفاجأة أنها تتكلم اللغة العربية:

" أين تعلمت العربية؟"

" عشت في بغداد ثلاث سنوات في بيت جدي وهو تاجر في الشورجة لكنه خرج يوماً ولم يعد"

خرج ولم يعد. حكاية مكررة تلك الأيام:

" منذ ذلك اليوم قررت العودة وتفرق الأهل".

" هل نحن أعداء درخشان؟"

”لا، نحن أخوة. لكن ألا تخاف على نفسك من الكلام معي؟“

” ماذا سيحصل لي؟ هل هناك أسوأ وأصعب من هذه الحياة وانت تعرفين نُهاجم غالباً في الليل من المسلحين مع المطر والثلج والعواصف؟“

كنت أناديها العمة درخشان، كنت في العشرينات وهي بين العجوز وبقايا جمال جبلي بري موشك على الغروب، ومن لا يهرم في هذه الأمكنة قبل الأوان؟

خارج الكوخ الجبلي حقل صغير تضع فيه التبن والعلف وحطب الشتاء مغطى بأخشاب الصنوبر والعشب على شكل سقيفة.

البنت صامتة وبين وقت وآخر ترفع بصرها لتنظر إليّ تلك النظرة المزيج من الطمأنينة والخوف والثقة وتحدق في السقف لا أعرف لم، وكنت أعيش مشاعر صعبة ولم أرغب يوماً أن أجد نفسي في هذا الموقف أبداً.هل هذا الصمت هو مقاومة سلبية ضدي، الصمت المخترق، القاتل، كما في رواية» صمت البحر« الفرنسية خلال الاحتلال النازي لباريس التي كتبها فريكور الاسم المستعار،لكن قيل إنه جان بروليه وصدرت من دار نشر سرية مينوي، أي منتصف الليل ١٩٤٢؟قال الشاعر لويس أراغون وكان مع البير كامو في المقاومة السرية» هذه الرواية ليست من تأليف اندريه مالرو لأنها تخلو من

كل صنعة وتكلف"..

يملك رجل فرنسي و ابنة أخيه « بنسيون" في الريف الفرنسي عندما يقيم ضابط ألماني بضعة أيام في البنسيون وهو مثقف يحب الموسيقى وقرأ كثيراً ويكره النازية والحرب ومراعاة لمشاعر صاحب البنسيون والفتاة لا يرتدي البدلة العسكرية لكن مشاعر القلب خارج الحرب والسياسة والعرق والدين والقومية وتخترق كل الحدود، لكن لا كلام بين الضابط والفتاة عدا النظرات ورعشة الأصابع والصمت ومن يعرف ماذا يجري تحت قيعان الصمت؟.

أية محنة بين رجل وجد نفسه في حرب لا يؤمن بها وبين فتاة تجد نفسها مرغمة على الصمت الراعش؟

هل هي مقابلة بين فرنسا وألمانيا؟ في اليوم الأخير يغادر الضابط المهذب، يلقي تحية الوداع بحزن، تنهض خلفه و اقفة لكن مرة أخرى الصمت لكنه المخفي صراخ القلب في أقسى تناقضاته.

لم يكن الأمر معي كذلك. ليست هناك عاطفة خاصة تجاه الابنة لكن الصمت هو المستفز: قالت لي الأم مرة وربما لتوضيح الأمر:

" لا تعرف اللغة العربية و أنت تعرف أن الأمر صعب علينا جميعاً".

خلال الصعود الى الجبل والهبوط، أمر من كوخ درخشان ومرات

حلبت لها أبقارها يوم كانت مريضة، خلسةً وبالضد من التعليمات العسكرية: كل شيء خلسةً، العواطف، الكرزات، الطعام، حلب الأبقار، وحتى الصمت وكان ذلك مؤذياً ومستنزفاً. أحمل لها بعض معلبات الطعام أو أرزاق الطوارئ كما تُسمى التي يمكن أن نستعملها في حالة حصار مسلح وتعطيني، خلسةً أيضاً، كرزات وصرة الجوز واللوز مع وعاء الحليب. هل كانت علاقة بين شخصين؟ أم هي علاقة الجنوب بالشمال؟ لست محتلاً وليست درخشان أسيرة، شركاء في الأرض والمصير والأمل، كانت قصة حب أمومية بكل معنى الكلمة تستحق رواية منفردة. اليوم الأخير نزلت من الجبل للسفر في إجازة لاسبوع مودعاً درخشان. قالت لي بعيون غائمة:

" خذ هذه معك".

كانت بلوزة من حياكتها. كلا، لم تكن بلوزة بل كانت

سيرة حياة وقصة حب وكل خيط هو احتضان وقبلة وبراءة وتاريخ لم يرو كما يجب. عدت بعد نهاية الاجازة حاملاً هدايا وكان الثلج ينثال وعندما ناديت درخشان مرات لم تخرج. من عتمة الكوخ خرجت الفتاة، وقفت أمامي وقريباً مني لأول مرة بعينين غارقتين في الضباب والثلج يهبط فوق مدخنة الكوخ. وقفت صامتة على تلك الحال، كم دام ذلك الصمت؟ لا أدري. اشارت بيدها نحو مكان في

الحقل ينثال فوقه الثلج وتظهر منه بقايا شاهدة حجرية فوق قبر.
كان الثلج يهطل ذلك اليوم، وبعد كل تلك السنوات لا يزال حتى اللحظة يهطل ومعه تهطل أشياء كثيرة.

١٠

«سيجارة واحدة تكفي لاحتضار سعيد"

- الخلاص والسلام لن يهبطا إلا على الإنسان الذي ظلّ انساناً
* قسطنطين فيرجيل جورجيو، مؤلف رواية: الساعة الخامسة والعشرون.

إنه حيوان سادي مريض هو الذي صنع هذه الحروب كما تقول فريدة. ينفتح باب الحمام وينغلق في مكتب فريدة خلال زيارتي لها في شارع السعدون. كنا نقضي أوقاتاً طيبة في التسكع في شوارع بغداد والمقاهي والساحات العامة وكل ما افتقدته من ضجيج وصخب الشوارع لكننا في الوقت نفسه كنا نبحث عن سجلات ووثائق عن جريمة دفن الجنود، أحياءً، في الصحراء. كنت أفكر بكتابة مذكرات كما فعل أغست بريل ووعد ميريام لكن مشكلته العزلة» العاهرة» كما أطلق عليها محطم الساق من تلك الحادثة، والشعور بألا أحد يهتم به كتب أم لم يكتب بعد أن كان « كالكلب السلوقي» يعمل « بأقصى طاقته». كان يقضي أوقاتاً مع حفيدته كاتيا في مشاهدة ومناقشة الأفلام القديمة للمخرجين رينوار، دي سيكا، وراي،

لكنني على عكس بريل أروي قصصاً لنفسي متى تطلب الأمر وفي هذه القصص أكتشف أشياء كثيرة لم أفطن لها، بكلام أدق أعيد اكتشاف نفسي أمام هذا الثلج الهاطل وشمس منتصف الليل ونيران الموقد وحرية تفيض عن مساحة صحراء عريقة في القدم. الليلة، مثلاً، كنت أسترجع حكاية منسية تماماً. كنا نعبر مخاضة مائية تحت الثلج الهاطل خلال القتال في الجبال وقد بدأ القتال من جبال صلاح الدين، هضبة سبيلك، بلدة خليفان، مضيق كلي بيك، سهل ديانا المطلة عليه جبال زوزك وهندرين، طريق ومضيق هاملتون المؤدي الى كلالة حتى النهاية الأخيرة في حاجي عمران، أي أكثر من ١٨٠ كلم قتال لعام كامل ،مشياً، في غابات وكهوف وأدغال وجبال ووحول وأمطار، لم يبق منا في معركة مضيق كلي علي بيك الضيق والوعر سوى ربع القوة بعد إبادة شبه تامة من قناصين محترفين متمركزين فوق الجبال على جانبي المضيق هما جبل كورك ونواخين، كنا نعبر مخاضة مائية متجلدة ونحن نرفع البنادق على الأكتاف في الغبش قبل الفجر لكن بعد العبور عثرت على جريح من قوات ما يُسمى» العدو“ ينزف وكان شاحبا شحوب الموت مختبئاً في الاحراش وغارقا في بركة دم.

ذُعر عندما أنزلت البندقية من كتفي وفهمت من عبارات واشارات مبعثرة أن أنتظر قليلاً. يريد قليلاً من الوقت للاحتضار.

لم يكن عندي الوقت وكانت زمرتنا المتخصصة في حروب الجبال قد عبرت المخاضة واختفت في الصخور والاشجار، لكني وقفت و انتظرت رغبته الأخيرة وكانت سيجارة وجرعة ماء لا أكثر.

تركت له ثلاث سجائر بما يكفي لاحتضار قصير وزمزمية الماء كاملة. لم أشعر أنه مستسلم. كان فقط يشعر بوحدة انسانية باردة وهو ينزف أمام عدو.

لا أعرف كيف كان يراني تلك اللحظات لكني شعرت أن ذعره زال وصار كل واحد منا ينظر للآخر كمرآة وبنظرة طويلة تركته يحتضر بغنيمته الأخيرة، ثلاث سجائر وزمزمية ماء حصته من هذا البلد وهي حصتي أنا أيضا: تساوينا في الخذلان والهزيمة والفضيحة. لكني شعرت ان الجريمة ليست هنا بل في مكان آخر: ليست في كوني أمام« عدو» يحتضر، بل القدر المشؤوم الذي وضعني لكي أقرر مصير و أكون قاضياً على ضحية أتقاسم معها الظلم والألم وحتى الموت، ونحن شركاء في الأمل والأرض والمصير والمستقبل.

لم يكن وجهه هو المرآة فحسب بل الانعكاس الذي قلب أدوارنا في لحظات من أعداء الى شركاء وضحايا، واحد يحتضر والاخر في الطريق، لحرب خاسرة سلفاً لا انتصار اخلاقياً فيها.

شعرت تلك اللحظات للمرة الأولى أنني عاجز عن حب نفسي وحتى

احترامها لأن القدر أو الصدفة أو السلطة وضعتني في مشهد العجز عن القيام بدور انساني يتجاوز ثلاث سجائر وجرعة ماء.

لا أدري كم مر من الوقت لكني عندما نقلت خطوتي للمضي، رفع يده بالشكر. نكست رأسي وخجلت منه. هذا الجريح هو أنا، لم يعد جريحا. صار قضية، في هذا الدغل تحت الثلج وفي هذه الزاوية من العالم وجدت مصيري أمام اختبار، ويجب عبوره أو الجنون. كنتُ مستعداً بشكل فوري تلك اللحظات لقتل أي جندي يحاول قتله، إذا لم يكن له الحق في الحياة، على الأقل الحق في الاحتضار والموت. كان وداع أصدقاء كوداع المحكومين بالاعدام في الزنازين في الفجر، وعندما تركته لم أعرف من مات فينا؟ اليوم أفكر ماذا سيحدث لو أنه أطلق عليّ النار من الخلف وهذا يحدث كثيراً في الحروب؟

كنت سأستدير للخلف و أنظر إليه بكل رعب ودهشة وبراءة العالم. صدمة طفل يُطعن بخنجر من الخلف في الظلام وهو يعطي ورداً، أغرز تلك النظرة فيه إلى الأبد وتعادل كل رصاص الأرض. لكن تجارب الحياة أكدت إنك لا تحتاج ساحة حرب لكي تطلق عليك النار من الخلف. النيران من الخلف قد تطلق عندما تمد يدك مصافحاً، عندما تكون في ذروة الانتشاء والصداقة والأمل. لم أعرف تحديداً الجزء الذي مات فيّ أنا: الشجاعة أم تقبل الو اقع أم قبول المأساة؟ ولا الجزء الذي وُلد؟ كنت أشعر ان المعركة الحقيقية ليست هنا،

ليست معركته هو و انا ونحن في المكان الخطأ، وكان يجب أن نكون، معاً، في مكان آخر، في معركة أخرى مختلفة.

على خلفية حالة التوحش اليوم، يبدو ان تركه يحتضر ومنحه سيجارة وجرعة ماء، من الخوارق والمعجزات أو اللامعقول، مع ان السلوك الطبيعي تركه يموت.

هل نجا؟ هل كانت ثلاث سجائر وجرعة ماء كافية للاحتضار» السعيد“، وكل ما بقي من حياة في تلك الوحدة الباردة؟

أشك اليوم أنه حي لكني لا أشك أبداً أن جزءاً فيّ قد وُلد من رحم تلك المصادفة، لكنني اليوم رغم كل تلك السنوات ما زلت أتخيله يحتضر نازفاً في الدغل تحت الثلج، وقد لا يكون أكمل سيجارته الأولى،

هو ينزف وحيداً، و أنا أنزف في منفى: كلانا خسرنا.

١١

«عبور جبال الموت»

.كن شجاعاً، خاطِر، فلا بديل عن خوض التجربة.

باولو كويلو، روائي.

الساعة العاشرة ليلاً والثلج ينثال من خلف النافذة وكنت قد ألقيت تحية الليل على ابنتي قبل أن أستلقي في سريري وعلى الطاولة رواية» رجل في الظلام». كنا في كانون الثاني لذلك تذكرت ذلك اليوم الذي عبرنا فيه جبال الموت. كانت الصور واضحة كما اليوم حتى ان القمر يظهر ويغيب بين الغيوم فوق جبال تافتان كما لو أنه يشرق الآن. عندما نظرت الى جبال تافتان على الحدود الايرانية الباكستانية الشرقية، في مساء آسيوي شتائي معتم وشاحب، تذكرت حكاية فريد الدين العطار الصوفي عن ثلاثين طير يبحثون في رحلة شاقة وخطيرة عن ملك الطيور السيمورغ القادر على كل شيء، الرحلة تقتضي التخلي والحب والفناء والفقر والاستغناء، لكننا نحن، وللغرابة، كنا ثلاثين عراقياً، نبحث عن سيمورغ آخر

هو الحرية، ولسنا بعيدين عن حلم العطار. هل يتطلب حلم الحرية هذا العناء،الحلم بمكان هادئ ونظيف بضوء شمعة وحساء حار وغرفة آمنة؟

من عبور حقول الألغام الى عبور جبال الموت البركانية هل هذه حياة أم هاوية؟ الحرية تستحق أكثر من ثمن الموت، لا خيار أبداً بين الكرامة وبين الذل. ماذا وراء جبال تافتان البركانية في هذا الشتاء الجليدي في كانون الثاني ١٩٨٩، و أنا في قميص صيف اشتريته من رصيف الملابس المستهلكة في طهران؟

كنا أمام ما يسمى «مثلث الموت» وهي تسمية حقيقية للمكان بين الجبال الاير انية، الباكستانية، الأفغانية في فترة حرجة من تاريخ العالم، صنعت أحداثاً مستمرة حتى اليوم: هل هو قدر أم مصادفة أن أكون دائماً في قلب أحداث عاصفة؟

كانت قوات الاتحاد السوفيتي في حالة انسحاب من افغانستان في كانون الثاني ١٩٨٩ ونصف مخابرات العالم تجول في المنطقة مع قوات المجاهدين والشيوعيين الأفغان، وعصابات المخدرات المسلحة التي تخشاها القوات الحكومية، ولا نعرف على يد من نقتل أو تكون التهمة، فكل شيء يوحي بالعبث في ذلك المثلث القاتل. كنا قد بدأنا الصعود في أول المساء، الجبال حجرية وكلما وصلنا قرب

قمة تدحرجنا الى الأسفل كسيزيف وجبال تافتان بأربع قمم، كما لو أننا في متاهة أو في رحلة طيور السيمورغ، لذلك لم أستغرب ان لويس بورخيس أعاد صياغة رحلة الطيور الثلاثين على طريقته كصانع متاهات.

في الحكاية تصل الطيور الباحثة عن الخلود والحب

والحقيقة ولكنها لا تجد طائر السيمورغ الأسطوري،

لكنها تكتشف أن هذا الطائر لا وجود له خارجها،

وكانت في الحقيقة تبحث عن نفسها بل وجدت مرآة تعكس صورها، السيمورغ في داخل كل واحد منا وعبثا البحث عنه في مكان آخر.

بعد منتصف الليل وصلنا قمة جبال تافتان و انحدرنا نحو الاراضي الباكستانية على ضوء قمر يظهر ويختفي بين الغيوم لكن لا أحد منا يعرف الطريق. عندما نظرت الى الثلاثين أمامي على ضوء القمر،

كنت أختنق بصرخة حادة، اعرفهم جميعاً بل أعرف حياة أغلبهم وفي قاع الوادي وقفنا نبحث عن الطريق الذي يقودنا نحو الأراضي الباكستانية، كنت أرتعش من البرد القارص بقميص الصيف، لكن

لا مجال للسقوط، لا حائط تتكئ عليه عدا العدم والفراغ. فجأة عوى كلب بعيد، كان الكلب دليلنا نحو الحرية فلا كلب بلا بشر. في الصباح دخلنا أول بلدة صغيرة تحمل اسم تافتان، تفرقنا ولم يبق معي غير صديق، ودخلنا الى خان مهجور لكي نستريح من الإرهاق والجوع والعطش. نمت في غرفة مهجورة فوق التراب وكان صديقي و اقفاً يتصفح جريدة جلبتها الريح، غفوت وحلمت بالمنزل وغرفة النوم وبالحرب. كنت أختنق في خندق وحل بين الجرذان، ثم فوق جبال زوزك وكرده مند وهندرين ونحن نمضي في طو ابير تحت الثلج في طريق هاملتون نحو كَلالة تحت الرصاص المنسكب من فوق الجبال المحيطة.

لكن شخصاً جرني بقوة من قميصي، وعندما أفقت شاهدت شرطياً باكستانياً بوجه مزمجر، وقربه صديقي يضحك من مفارقة المشهد، ليس الضحك الناجم عن سرور بل عدمية. كنت بين اليقظة والنعاس وأحلام الحرب أراه كمن ينبح وهو يقول بإنكليزية معوجة:

" من أنت؟".

ليس الوقت مناسباً لجواب الصوفي:

" هذا سؤالي لنفسي".

لكني قلت مع نفسي مفكراً:

" أية حياة هذه: تنام وتحلم بالحرب وتستيقظ وفي انتظارك شرطي؟"

تذكرت صرخة بابيون في فيلم الفراشة رواية هنري شاريير وهو يقفز من فوق الصخرة نحو البحر فوق طوافة« أيها الأنذال، أنا ما زلت حياً".

١٢

«كيف سرقت الجنازة وتركت صاحبك القتيل؟"

لم تتوقف العاصفة الثلجية التي تلوح خلف النافذة وجلسنا أكثر من ساعة أنا و ابنتي نتحدث عن مشاكل الشرق الأوسط، البرق يضيء النافذة، لمست انها متألمة لأنني أقضي الوقت في المنزل لكني أكدت لها انني سعيد بذلك ولست متضايقاً على خلفية ماضي غير محتمل. عندما صعدت غرفتها نظرت الي منتصف السلم ولمحت في نظرتها انها مطمئنة من الحال ولا شيء يستدعي القلق. لم اعثر على تشابه بين اوغست بريل وبيني لانه كل ليلة يخترع احداثاً عادية للهروب من موت زوجته ووحدة ابنته وترمل حفيدته ومن وحدته التي ليست خياراً بل بسبب حادث سيارة.

يقول أوغست بريل الناقد الأدبي المتقاعد لصديقه تايتوس:

« لا تزال الحرب تدور منذ ما يقارب الثلاث سنوات، عندما بدأ الغزو قلت لي أنك ضده.» مروع» كانت الكلمة التي استخدمتها فيما أظن. قلت إنها حرب ملفقة، مختلقة، أفدح خطأ سياسي في التاريخ الأمريكي، هل أنا محق أم أن الأمر اختلط عليّ بينك وبين أحد آخر؟».

« الذي تقوله عين الصواب. ذلك بالضبط ما شعرت به».

« لم نلتق كثيراً في الآونة الأخيرة، أتذكر أنك قلت إنه ينبغي أن يلقى بوش في السجن - بالاضافة الى تشيني ورامسفيلد، وباقي عصابة المحتالين الفاشيين الذين كانوا يحكمون البلاد «.

على غير توقع خطر لي وجه الشاعر عريان السيد خلف من عتمة الغرفة الدافئة. ربما الخاتم الفضي نفسه، ما تغير سوى السجائر والرماد،الوجه نفسه، النظرة الحائرة والحاجب الثقيل الطويل،كليل العراق الثقيل الطويل، متى ينتهي هذا الثقيل الطويل؟من أين نبدأ؟ من تاريخ الجنازة؟ أم من وحشة السجن؟ أم من محنة ظعن شت عن هله؟

يموت الكثيرون كل يوم ويذهبون الى المقبرة، لم يرجع لنا ميت من الدفن عدا المشيعين، لكنك الأمس تركت الجنازة وحدك، دفنت المشيعين، وعدت تضحك بالخاتم الفضي نفسه، لم يغير الموت فيك غير رماد السيجارة، متى ينتهي رماد السيجارة؟ عريان مقبوضا عليه منتصف الليل ببدلة الاورزدباك الموحدة.

كصقر في فخ معصوب العيون مثلنا جميعا ونرفع العصائب ما أن تغلق الباب في زنازين الامن العام او المسلخ البشري في زمن فاضل البراك الذي جمع بين البداوة والتوحش وخبرة التعذيب في العالم

وهو الاكثر حقارة ودموية من لافرينتي بيريا مدير اجهزة أمن ستالين وكلاهما أعدم لان الدكتاتورية عجلة ضخمة مسننة طاحنة للجميع.

توا نزلت من الجبال سبع سنوات في حرب الجبال في الجنوب في صحراء البصرة تحت حرارة ٥٠ تحت نيران القنابل وجحيم الملاجئ وجنون المحاربين ثم الى المنفى وصار التاريخ اليوم رو اية قصه خون.

كان قدري أن التقيك في الليل في السجن ثم من السجن الى حرب الثماني سنوات في الجنوب. الزنازين ضاجة بالصراخ في المسلخ البشري:

هنا كفاح محمد مهدي الجواهري يتكئ على الحائط،

هناك في الزاوية البروفسور صفاء الحافظ يروي للأطباء والمحامين والطلبة وأصحاب الفنادق عن مجلس السلم العالمي، كان عضواً فيه، كان عضواً في اللجنة العليا لمحو الأمية، وقد علم السجّان القراءة والكتابة. يردد باسماً:

"خلف جدران الزنز انة حديقة".

هل صحيح خلف جدران الزنز انة حديقة؟ لم تكشف الأيام ذلك، لكنها ضحكة الأسد الجريح المحاصر بالضباع، أُطلق سراحه لكنه خُطف في شارع الرشيد، وأُعدم.

انتهت سجائر سمير الحلو ائي نداف في شارع الصناعة، وشقيق جاسم الحلو ائي عضول م، كان علينا هو و أنا غسل المراحيض كل يوم ومسحها بقمصاننا. همس لي سمير يوما قائلا « فاطمة المحسن في زنازين النساء ومضربة عن الطعام» لا أعرف طريقة التقاط الاخبار في هذا الجحيم وهو ما ثبتته المحسن في سيرتها الاخيرة» الرحلة الناقصة". لم نكن جميعاً شيوعيين ولست عضوا في حزب لانني اعمل حتى اليوم في الثقافة والسياسة في القطاع الخاص لحسابي.

نحن ثلاثة أشخاص قُبض علينا في ساعة واحدة في مناطق متفرقة في العاصمة وهم أحياء حتى اليوم حين انهار الشيوعي الملقب باللّبان وباعنا للأمن وخرج سالماً والتاريخ قصة مزورة في الماضي والحاضر وهو اليوم قيادي في الحزب ونحن في منفى وصار هو من يروي الحكاية لان تاريخ الصيد رو اية الصياد وليس سردية الطريدة. من سمع شهادة الطريدة؟

كان بعضنا يحلم بالكتابة وبيت سعيد، وآخر قادم من ردهة العمليات: الدكتور الجراح حسان عاكف حمودي ببدلة العمليات لأنه عالج شيوعياً وأخرج الرصاصة من جسده، كان عليه أن يخوض معركتين في يوم واحد: معركة انقاذ جريح ومعركة السجن. طبيب جراح بثياب بيضاء في السجن بتهمة عملية جراحية ناجحة لانقاذ جريح؟

مشهد سريالي لا يحدث إلا في حكاية. آخرون أصحاب فنادق، البعض كان ندافاً: سمير الحلو ائي في شارع الخمسين قرب الجامعة التكنولوجية، الدكتور صباح الدرة سكرتير اتحاد الشبيبة العالمي،

أُعدم. الدكتور زيد عبد الصمد نعمان وثق حوارات الزنز انة في سلسلة مقالات، والده طبيب العمال الفقراء ونزيل نقرة السلمان، أحد قادة وثبة كانون في الاربعينات، أحد ركاب» قطار الموت“. هل هذا العراق في غرفة ضيقة؟ كيف انتهينا الى هذه المجزرة؟ كيف طار الآخرون الى المنافي، نحن وحدنا وقعنا في المصيدة؟ لماذا نحن وحدنا وقعنا في المصيدة؟

كنت أنت، عريان، النزيل الأخير، ماذا يفعل الشاعر في وحشة السجن؟ ماذا ينفع غناء الكناري في قبضة الوحش؟ ماذا يجدي لو رهنت عمرك نذرْ للحامل بشارة؟

لم يأت ولن يأتي. ماذا تنفع جروحك الما لهن جارة؟

كيف صدقت أن الجرح يبني على مسماره؟ على من تلقي اللوم؟ كيف أقنعت نفسك إن الما يخاف اللوم يرضى بذلته وعاره؟ هناك من يخاف اللّوم، وينام على ذلته وعاره. هناك الرمادي، يا سارق التابوت، ولا حدود قاطعةً في المو اقف. كيف صدّقت المبشّر في أن الطائر المقصوص جنحه يطلع جناحه؟ ليس كل من قُص جنحه،

يطلع جناحه. من أوهمك أن كل من جليته وغسلته يطيح زنجاره؟ ليس كل من جليته يطيح زنجاره. من قال إنك أول من يزرع شلب، ويحصد البردي؟ أنا أيضاً زرعت الورد لكن خضّر جرح ينزف ويدّي.

هل رأيت شخصاً يتعكز على جرحه وما يطيح وما يصيح؟ هل رأيت ظلاً ينزف في الليل على حائط ورجلاً صامتاً في السرير؟ الرجال تبكي بصمت الأسود الجريحة في الليل تحت المطر في الغابات.

هذا طبع الذئب من ينجرح، يلحس جروحه بمغارة وينعزل وما يشوفه الطير، جروحه ضوه بليل المغارة،

ينزف على الريح روحه وينطفئ مثل النيازك في البراري بلا وداع، ولا مناديل ومن يجيه الموت يعض على تراب المغارة، ومن تصل روحه الوريده ينام على جرحه وما يصيح، غن، خوية عريان، غن.

لو فاض الحنين اليوم، سأُغني:

" أريد أبكي على صدرك مشتهي النوح".

أنا مشتهي النوح. ليس عيباً أن أشتهي النوح. أعض بأسناني على تبليط الشوارع مشتهي النوح، ومشتهي البوح. كنتَ طفلاً في وحشة السجن في الليل، لا تملك غير خاتمك الفضي وعلبة سجائر نجت من التفتيش، نوع سومر الذهبي الرشيق الطويل الأنيق في علبة زرقاء.

يوم انتهت سجائرك صادف يوم تأميم النفط الأول من حزيران. كان السجانون كرماء معنا ذلك اليوم حين وزعوا سيجارة واحدة على كل مدخن، علّق صفاء الحافظ ضاحكاً بعد غلق الباب:

" سيجارة واحدة حصتنا من النفط واضرابات عمال شركة النفط في كاورباغي ومن انتفاضة الجسر وأعواد المشانق، الى معتقلات الملكية والجمهوريات القاتلة، من انقلابات الضباط الخونة، هذه حصتنا من العراق".

ما تزال حصتنا، عريان، لم تتغير، سيجارة وقبر ومنفى. هم، انت تعرف من هم، رفاقك، يخرجون من السجن «أبطالاً « وكان بعضهم يتبول في السراويل ونحن نذهب الى المنافي أو الحروب لأننا أبناء الصمت والفانوس والمزبن، لاننا لسنا جوقة فنحن واحد. عندما يهزني الحنين لا أقول مثلك:

" ردي، ردي يا ظعن شت عن هله...وحداي غربة البيه يحدي. ردي ينباع العشك وليا قلب تهوين صدي".

لا تردّي أنا لا أصلح للتشابه والتناسخ و أنا مثلك صرت حدّاي غربة في الليل يحدي، صحيح صار العشق ينباع، لكن لا تردّي. صحيح أنت من دم ولحم، لا من صخر قلبك، لكن لا تردّي.

صحيح أنت ملّيت الصبر، ومن معك صار ضدك،

لكنك في النهاية مثلنا: تترس وتبدّي، ما ظل عندنا ما نترس أو نبدّي.

القطار الأخير لم يتوقف في محطته الأخيرة، السائق مات والمسافرون نائمون، لا ننتظر الوصول بل الارتطام، متى يحدث الارتطام الأخير؟

كل شيء انتهى. حتى المطر صار لصاً في المصارف. يقول مدير المصرف الوطني:

" خرب المطر نقود البنك"

ماذا نفعل للمطر اللص؟ ماذا نفعل للغيمة المشاكسة؟ من يدري غداً؟ ربما الأرنب يطارد الذئب والسبع يطلب نجدة الثعلب. لكنك الأمس فاجأتنا بالهروب الأخير، هذه ليست قصيدة وتنتهي، هذي جنازة والميت أنت، هل صحيح الميت أنت؟ صار الموت يحصد الوادم بالشوارع و أنت تهرب بالجنازة؟ ليش خويه تهرب بالجنازة والنعش ياخذ إثنين،و أنا أنزف في المنافي مثل ظعن شت عن هله بالليل احدي؟

" في النعش متسعُ لأغنيتين،

في النعش متسع لصعلوكين،

كيف مضيت وحدك دون صاحبك

القتيل؟"

* المقطع الأخير: للشاعر سميح القاسم.

١٣

«جيل الثوب الأسود»

« لا توجد أرض جديدة، يا صديقي، لا أنهار جديدة، لأن المدينة ستلاحقك، والشوارع نفسها ستمضي فيها للأبد" *الشاعر اليوناني كافافيس:لا سفن تجليك عن نفسك.

منذ المساء سيطر على خيالي شارعنا القديم لأن المنفي يعاني من مشكلتين، لا هو في المكان القديم إلا من خلال الخيال والذاكرة، ولا هو راسخ في المكان الجديد ويعيش كضيف أبدي. عندما لا تجد الذاكرة عناصرها الأولى، تلتهم نفسها في نوع من الاجترار كما تفعل طاحونة فارغة. ليست هذه مشكلة أوغست بريل الذي يعيش في وطن متخيل وليس وطناً حقيقياً، ولست أدري أي واحد منا أكثر اغتراباً.

ولدت في شارع الأرامل، آخر جيل عراقي من النساء عاش معركة الحياة بشرف وبطولة بلا تذمر. جيل العباءات السود والثوب الواحد الأسود من الولادة حتى الموت. جيل هو التوقيع الأخير على

زمن لن يتكرر، جيل النظافة الأخلاقية المطلقة والتضحية المطلقة، عشن بلا مسرات ولا تعبير عن مشاعر وعواطف.ممنوع البوح بل مسموح الموت، صمتاً، بلا أدوات زينة ولا حقائب يد ولا حياة خاصة.

عندما قرأت رواية» شارع ميجل» للروائي الترينيدادي ف.س. نايبول الحاصل على نوبل وقارنت شخصياته بنساء شارع الأرامل، كانت المفارقة أن المسافة واسعة بين الإثنين، في شارع ميجل مسرات وأعياد وحفلات مجون، وخداع واحتيال ومرح. في شارع الأرامل تكريس مطلق للعمل والأطفال، تضحية بلا مقابل، صلب يومي، الزي الوحيد هو اللون الأسود غالباً في كل الفصول الذي يتبدل مرة واحدة الى اللون الأبيض في الخروج الأخير من المنزل، لون الكفن.

الحياة الحقيقية تسكن هذه النفوس الكبيرة، التاريخ في الهامشي وليس في روايات مقاهي وثرثرة وهموم المثقفين، والأدب يسكن هنا في هذه الاحاسيس الثابتة المنسية.

يوماً جاء الشاعر المرحوم مشرق الغانم من الشامية، خرجنا في الليل الى الشارع المضاء بالمصابيح، وقف منتصف الشارع وتأثر بعمق بتلاحم الجدران الطينية، كما لو أنه بيت واحد، التفت وقال: ستظل ذاكرتي مطلية بلون الطين من اليوم".

مات في الدنمارك وهو جالس على كرسي.

كنا نحن فتيان الشارع قد توزعنا على انتماءات مختلفة،

لكن الأغلبية نحو اليسار بسبب نداء الفقر والعدالة والثورة لا عن فهم عميق للأفكار، وقد أكون استثناء الشارع عندما توجهت مبكراً نحو الأدب وهنا كانت مأساة الصراع المفتوح.

في ذلك الزمن يجب أن يصنّف الفرد في خانة ولا مجال للفردية وقد يجلب شاربه الماركسي المتهدل أو المقهى التي يجلس فيها أو الاصدقاء الذين يمشي معهم تهمة الانتماء لحزب ما في زمن لم تكن اللحية شائعة، لأنها تتحول الى مكنسة في غرف الأمن.

على اليسار الجارة» دولة أم شعلان" الخبازة تكدح طوال النهار في الفرن من الفجر، الزوج غائب ولا حضور له، يقال قُتل يوما في طريق.

على اليمين بدرية نحلة لا تكل ولا تمل مع العمل، الزوج حاضر لكنه هامشي. كل أزواج الشارع بلا فاعلية بين ميت ومختفي ومطرود والحي عرضة لنوبة تعذيب فورية لأن الاستقلالية الاقتصادية تترافق مع قوة الشخصية، ما دام الرجل لا يصك ولا يفك فهو مشروع في أية لحظة للطرد أو في حالة إغماء بنصف بلوكة محلقة

في الـرأس أو ذراع عتيق لكرسي يكفي لمحـو قـارة.

في الركن حسـنة والـزوج حي لكنه ميت حتى في ذاكرتها، كل ما يفعله هـو الجلـوس فـوق عتبـة البـاب ومر اقبـة المـارة، وفي المشـاجرات التي تندلع لسـبب او بلا سـبب للاعلان عـن الحضـوروالمكانة، تقـوم حسـنة بخلـع ملابسـها كحـرب نفسـية ضـد العـدو للإخـزاء، ولـم يـر صبيـان الشـارع يومـا حسـنة وهي ترتـدي لباسـاً كمـا لـو انهـا تسـتعد كل لحظة لمعركة وكانـوا في انتظـارتلك اللحظـة البابويـة كمـا يقـول المثل الروسي: وقحـة الحي سـيدة جيرانهـا». جوارهـا العمـة كاظميـة بدجاجـات أعالـت عائلـة. مقابلهـا حمزيـة عنزة ودجاجـة ونخلـة كانـت كافيـة للعيـش بلا عـوز، قربهـا نوريـة الخياطـة خاطـت كل دشاديشـنا بصمـت، كنـا نحلـم لـو خاطـت جراحنـا القادمـة. الجـار الرابـع أخـرس - وجـاره المقابـل أخـرس أيضـا - وعندمـا سـأله صديـق بلغـة الاشـارة عني أجـاب الأخـرس علامـة الخطـر والابتعـاد وعندهـا فكـرت إذا كانـت سـمعتي القرمزيـة وصلـت الأخـرس، فمـا حـال البـاقي وهـم في كل الأحـوال بكـم في زمـن لا ينفـع فيـه الـكلام إلا لقضـاء الحاجـات البدائيـة لا للتفكيروالتواصـل؟

فهيمـة جارتي في الامـام والـزوج مصـاب بالخـرف وعندمـا يضيـع في الشـوارع يسـأل عـن إسـمي المعـروف في سـجلات الأمـن وكـرة القـدم ومطـاردة الخفافيـش في الليـل يـوم كان الخفـاش حقيقيـاً وليـس خفافيـش النهـار كمـا اليـوم، وحيـن يـرى منزلنـا يتذكـر منزلـه.

عباسية جمع حطب وقراءة كف وبريد رسائل بين العشاق قبل زمن البريد الالكتروني وصفحات التواصل، لا تقرأ ولا تكتب وكنا نكتب الرسائل الغرامية على ذراعها بالقلم الجاف مثل:

" شحرورة، انتظرك اليوم قرب حديقة روما، قرب مبنى الفاتيكان جوار الخطوط السويدية"،

وهي رموز مشفرة لأمكنة: الحديقة خرابة والفاتيكان بقالية والخطوط الجوية السويدية خان للخيول وكتبت عن تلك الرسائل رواية منشورة: «حفرة فيراب".

الشارع ظاهرة نادرة وسيطرة امومية مطلقة على رجال مهمشين أو مقصيين وعودة للمجتمع الامومي. الشارع الموازي يسمى شارع العميان والسبب عائلة تعاني من مرض العيون، الرجل الوحيد الأعزب الساكن وحده في الشارع هو جبار الأعرج، وجبار سكير وفاسد وشرس، وجدتُ أرامل الشارع حول جنازته حائرات في النعي، وحضرت الكوّالة أو الندابة السيدة «حياة «ابتسامة شارعنا، فقالت حائرة أمام النعش: ماذا أقول عن هذا الفاجر؟".

في اليوم الثاني سقط محسن الفهد الخرف بنوبة قلبية وهو يضحك وتبعه علوان الحائك القصير القامة جداً كما لو أنه دمية بعكال وشماغ وعباءة تمشي وحدها في الشارع، تاركاً زوجته أم غائب

وحيدة بلا أبناء، وفي أيامها الأخيرة صارت شبه عمياء وتسكن في ركن شارع العميان وكانت المرأة الوحيدة في الحي أيام الحرب مع إيران التي تنام بلا قلق. المرة الأخيرة كنت ماراً في الشارع في المساء وكانت تجلس على العتبة تضع يديها على خدها، سألتني:

" من أنت؟"

أجبتها فقالت وهي تتوكأ على ركبتيها:

" حمزاوي؟ تعال يُمّة المصباح انطفأ".

غروب غسقي يطل من خلال العينين الغائمتين، أم غائب سعيدة في زمن الحرب، لا قلق ولا انتظار ومحسودة نساء شارع الأرامل. قلت:

" سأشعل لك الليل لو انطفأ المصباح".

" تعرف أنك هدية سبع البوسلطان الامام الحمزة على بنات؟"

" سمعت".

كانت فقط تريد أن تتكلم من أعماق وحدتها، نسيت لحظات أن أبدل لها المصباح من فرط التفكير بالحرب وعزلتها الباردة:

كان الشارع في الليل غارقاً بالصمت والعتمة ولون الطين والسواد، وما يزال حتى اليوم. حتى اليوم.

١٤

يسأل أوغست بريل صديقه تايتوس:

« لماذا تريد الذهاب الى العراق؟ لماذا تسهم في حرب تمقتها؟»

« أنا لستُ ذاهباً هناك لأخدم أمريكا. أنا ذاهب لأجلي أنا».

« لأجل المال. أهذا هو الأمر؟تايتوس المرتزق المطلق».

« لست مرتزقاً. المرتزقة يحملون السلاح ويقتلون الناس. أنا ذاهب لأقود شاحنة. أنقل المؤن من مكان الى آخر».

« لكنك بذلك ستدعم شيئاً أنت ضده؟ كيف تسوغ لنفسك ذلك؟».

« لا أنظر للأمر من هذه الزاوية. ليس قراراً مرتبطاً بالأخلاق».

« كلامك لا معنى له».

« طوال حياتي تمنيت أن أكون كاتباً».

« الذهاب الى الحرب لن يكن سبيلك لأن تصبح كاتباً. ستعود

ورأسك مثقل بذكريات لا يمكن احتمالها. وفي أسوأ الأحوال، لن تعود على الإطلاق».

« أدرك أنها مخاطرة».

« كان تايتوس قد غادر الى العراق. بعد ثلاثة أشهر كان تايتوس في نشرة أخبار المساء جالساً على كرسي محاطاً بأربعة رجال ملثمي الرؤوس والبنادق في أيديهم. غير أن مذيع الأخبار يقرأ نصه قائلاً:

« في صباح هذا اليوم تم اختطاف تايتوس يعمل سائق شاحنة لصالح شركة BRK يطالب مختطفوه بعشرة ملايين دولار مقابل إطلاق سراحه بالإضافة الى تجميد الشركة أنشطتها في العراق. بعد ذلك بليلتين علمنا أن تايتوس قد مات.نفذ الذبح كما في التهديد» - رجل في الظلام.

هدأت العاصفة الثلجية رغم الرياح العاتية.تسأل ابنتي:

«لماذا بابا النبلاء هم الأكثر وقوعاً في الورط والمآزق؟"

من دون تردد أقول:

" إن نبل القلب حائط وحجاب وعازل من الانحطاط والخسة، ونبل القلب كما قال دويستوفسكي الحكيم هو من يوقع الانسان ضحيته لأنه يثق بنبل القلب البشري. نبل القلب نوع من العمى، لأنه

يفترض الجمال والبراءة والصدق في كل شيء، ومن هنا تكون الضربة موجعة. ضحايا نبل القلب والبراءة أكثر من ضحايا الحروب، لكنهم يعيشون جروحهم السرية بصمت، نبل القلب مصيدة.

نبل القلب حائط وحجاب وعازل من الانحطاط والخسة، ونبل القلب كما قال دويستوفسكي الحكيم هو من يوقع الانسان ضحيته، لأنه يثق بنبل القلب البشري، ولم يكن مشكين في روا ية« الأبله» غبياً بل كان نظيفاً وصادقاً وعفويا لكنه وقع في نسيج غير سوي، النبل كالموهبة والتفتح والأزهار يحتاج الى بيئة لكي يشرق. نبل القلب نوع من العمى، لأنه يفترض الجمال والبراءة والصدق في كل شيء لكنه لا يرى شيئاً، ومن هنا تكون الضربة موجعة. عندما يصمت النبلاء يكون مرورهم الصامت الطيفي في الشوارع ضاجاً بالصراخ كما لو أن النبالة تنتقم. إنه الثغرة التي يرشح منها الألم والوجع. مذهل تفسير علماء النفس للشخص النبيل والنظيف والصادق عندما يواجه مخلوقاً شريراً وساماً ومنحرفاً:

" يحاول النصح والمساعدة والتنبيه، أولاً، وعندما لا تنفع هذه السبل، ثانياً، يطلق طاقة الشر فيه الحبيسة التي لا يستعملها ويجمد صفاته النبيلة مؤقتاً في وجه الشرير لكي يرى الآخر صورته في مرآة".

لذلك قال العرب القدماء:« اتق شر الحليم إذا غضب“: جمد طاقة الخيركحليم لأنها لا تنفع وأطلق الشر، مؤقتاً، كسلاح وقائي. ضحايا نبل القلب أكثرمن ضحايا الحروب، لكنهم يعيشون جروحهم السرية بصمت كما تفعل النسور الجريحة في الطيران الى القمم النائية وهناك تنزف أمام الريح والليل والأبدية. هل نمتِ؟

١٥

هذه الليلة مرصعة بالنجوم وقد اختفت شمس منتصف الليل، فتحت ستارة النافذة على الغابة، يلوح طريق سيارات عام، ومنزل مقابل، قررت اعادت قراءة رواية« صمت البحر» وحاولت نسيان بول أوستر وشخصيته أوغست بريل وأوين بريك الذي يبحث عن المؤلف لاغتياله وانهاء حكاية الحرب التي تدور في رأسه لكن شخصية الضابط النازي في رواية صمت البحر يقاوم الحرب بالموسيقى والحب حتى لو كان حب فتاة فرنسية بلا أفق ولا أمل كالاحتلال النازي لباريس.

لا أسمع شيئاً غير فرقعة الخشب في الموقد وموسيقى هادئة تنبع من الطابق الثاني لابنتي ولا شيء آخر غير الصمت. مع انه لا وجود هنا لعربات تجرها الخيول في الثلج لكن يخيل الي سماع حوافر خيل فوق الثلج وقد تكون هذه العربات مرحلة من ازمنة قديمة من بغال حرب الجبال. للافلات من ذلك ومن تخيلات أوغست بريل ولقضاء الليل قبل النوم، أقرأ رواية« صمت البحر» للمرة الثانية. الهروب من الواقع الى المتخيل.

لم تطلق رصاصة واحدة في رواية «صمت البحر" ولا معارك سلاح ودخان في رواية مقاومة احتلال نازي: هناك الصمت الجارح بين الضابط النازي والفتاة الفرنسية ايام احتلال باريس لان الشعاراتية والخطاب السياسي في الفن والادب كطلقة مسدس في حفل موسيقي بتعبير ستاندال لكن لا مفر من ذلك.

صدرت رواية صمت البحر للكاتب فيركور. اسم مستعار. خلال الاحتلال النازي لباريس عام ١٩٤١ وزعت كمنشور سري عن دار نشر سرية « مينوي « أي " منتصف الليل» التي أسسها عدد من الأدباء من عقائد مختلفة، وعندما يهدد الوطن لا معنى لخلافات العقائد تلك الاوقات لان الجميع في حالة تهديد وجودي وحالة «اقتلاع» يتطلب «التشبث» بالجذور أمام أية عاصفة.

صمت البحر. تقع في ستين صفحة حجم صغير. لكنها أجمل رواية مقاومة في تاريخ فرنسا والعالم وهي قصة حب بلا شعاراتية ولا خطابية ولا الطنين العالي الذي يفسد العمل الادبي ومن دون ذكر لمفردة مقاومة او سياسة ايضاً ولكن في الحركات والايماءات والنظرات والجمل المقطوعة نلمس من خلال تعامل الفتاة وعمها مع الضابط النازي عمق الرفض المجسد في ذلك الصمت المدوي رغم الحب الذي بدأ ينشب بين الاثنين لكنه حب بلا تعبير ولا أمل ايضا. الحب كالارض لا يتأسس على الاكراه. الرواية تتحدث عن

رجل فرنسي يمتلك بنسيون وابنة أخيه في الريف عندما يقيم ضابط الماني بضعة أيام في البنسيون وهو مثقف قرأ كثيراً ويكره النازية والحرب لكن مشاعر القلب خارج الحرب والسياسة والعرق والدين والقومية وتخترق كل الحدود، لكن لا كلام بين الضابط والفتاة عدا النظرات ورعشة الأصابع والصمت، ومن يعرف ماذا يجري تحت قيعان الصمت والنظرات؟ حين يتضخم الصمت يصبح دوياً وضجيجاً ورفضاً. يعمق البيانو من ضراوة المشاعر. الكاتب فيركور هو فنان ورسام وشاعر واسمه الحقيقي جان بروليه، لكنه استعمل هذا الاسم على جبل فيركور في مدينة غرينوبيل الفرنسية والمعركة الكبيرة بين النازيين والمقاومة الفرنسية.

هناك من قال ان الكاتب الحقيقي هو اندريه مالرو لكن أراغون الشاعر نفى ذلك وقال إن لغة صمت البحر العفوية البسيطة والعميقة والشفافة ليست لغة مالرو التي تميل للصنعة والتكلف. رواية مقاومة بالمعنى العميق والانساني: تنافر بين عقليتين وهدفين ورؤيتين للحياة: محتل وفتاة فرنسية، والسلاح هو الصمت، الانكار، السخط، حتى يقول الضابط النازي بعد معاناة طويلة مع هذا الصمت وتضارب المشاعر انه سيطلب نقله الى الجبهة ليعيش الجحيم... الدوي... أفضل من هذا الصمت.

أية محنة بين رجل وجد نفسه في حرب لا يؤمن بها وبين فتاة تجد

نفسها مرغمة على الصمت الصاخب؟ هل هي مقابلة بين فرنسا وألمانيا؟ من غير الصحيح وضع الشخصية الانسانية في قالب نمطي عام، لا يكون العسكري مؤمنا بالحرب دائماً وليس الطبيب شريفا دائما وقد يخفي وغداً وليس المتدين في جميع الاحوال صادقاً بل قد يكون ملحداً وشريراً ونصاباً.

في اليوم الأخير يغادر الضابط المهذب، يلقي تحية الوداع بحزن، تنهض خلفه و اقفة لكن مرة أخرى الصمت لكنه المخفي صراخ القلب في أقسى تناقضاته. حين يغادر البنسيون تصدر من الفتاة حركة خافتة مرتعشة وتندفع خلفه للمرة الاولى للشارع وهو يركب الجيب العسكرية: صارا وجها لوجه. من الصعب أن يكون اللقاء افتر اقاً. نهاية مفتوحة.

١٦

يعترف بول أوستر أن فكرة روايته «رجل في الظلام» مستوحاة من قصّة حقيقيّة، ففي صيف عام ٢٠٠٦، اندلعت الحرب بين اسرائيل ولبنان، وكان أوري، ابن الكاتب الإسرائيلي دافيد غروسمان من بين الجنود الذين قتلوا في تلك الحرب، فكان ذلك بمثابة الكارثة بالنسبة لوالده الذي كان يطالب بضرورة إيقاف تلك الحرب، لذلك أهداه بول اوستر روايته المذكورة ـ مقابلة مع بول أوستر.

في الظلام الناعم خطرلي القس أوسكار روميرو الذي اغتيل وهو يؤدي الصلاة، الشخصية التي تتناقض كلياً مع أوغست بريل الذي يجلس في ظلام الغرفة يتخيل عالماً موازياً دون أن يشارك في صنعه ومن خلف النافذة تلوح السماء رمادية. البيت صامت لكني اسمع أغنية أديث بياف « لست نادمة على شيء» من الطابق العلوي بصوت هادئ. كلما سمعت هذه الأغنية تخيلت نفسي أمشي على ساحل طويل فارغ تحت المطر دون أن أفهم لماذا أو أمشي في تشييع جنازة ومرة أحرق أوراقاً في علبة نفايات عن أمور تتعلق بالماضي.

القس أوسكار روميرو الذي يعلق الفيلسوف نعومي تشومسكي صورته في مكتبه كرمز للتضحية والشجاعة والأمل، ليس كبير أساقفة السلفادور فحسب، بل هو مناضل من أجل العدالة وعاشق وشاعر حتى أتهمته الكنيسة بالقس الشيوعي لأنه من مؤسسي لاهوت التحرير في قارة أمريكا اللاتينية وهو التجمع الذي يضم منظمات ثورية مسلحة ومثقفين وروائيين وشعراءً ومستقلين، ما يجمع هؤلاء ليست العقيدة بل القضاء على الفقر والاستغلال والنهب الأمريكي.

القس روميرو لا يفرق بين شيوعي هارب ومطارد وبحاجة للعون والاخفاء أو الحماية، وبين مسيحي مظلوم أو فقير مشرد، لا يختزل الناس في صفات وخانات و أفكار بل هو يحب، وعنده كتاب يحمل عنوان: عنف الحب.

كان القس روميرو يؤدي القداس في ٢٤ مارس آذار ١٩٨٠، عندما تم اغتياله وهو يصلي في كنيسة صغيرة في مستشفى: القاتل كتائب الموت الأمريكية، النسخة السلفادورية من داعش التي نكلت بالمدنيين من خلال المذابح والقتل العشوائي هنا وهناك وحرق المزروعات.

في يوم تشييعه في ٣٠ مارس أطلقت النار على الجنازة، وسقط ضحايا و اندلعت الحرب الأهلية استمرت ١٢ سنة والنتيجة حرق

المدن والتشريد وقتل ٧٠ ألف ضحية. «كتائب الموت» منظمة إرهابية مدعومة من الولايات المتحدة، نكلت بالناس وتصفية المعارضين ودخل النظام الانقلابي العميل في صراع مسلح مع جبهة فارابوندو المؤلفة من خمس منظمات يسارية مسلحة FMLN، وشاركت الولايات المتحدة في المذبحة في عهدي كارتر وريغان. في عام ١٩٩٠ تم التوقيع على اتفاقية سلام في المكسيك. لكن السؤال الجوهري هنا: من اغتال القس روميرو وأشعل الحرب الأهلية؟

لو دققنا في سجلات أسماء السفير وفريقه في السلفادور في حقبة الثمانينات لوجدنا أنهم الفريق الأمريكي نفسه الذي عمل في العراق عام ٢٠٠٣ خبراء الحروب الاهلية وصناعة منظمات الارهاب:

السفير نغروبونتي والجنرال ديفيد بتر ايوس قائد القوات الامريكية في العراق والسفير روبرت فورد نائب السفير في بغداد وآخر سفير في سوريا ومهندس خرابها، والكولونيل السفاح جيمس ستيل وهو الذي تولى عملياً اغتيال القس روميرو لانه المشرف على كتائب الموت ونقل التجربة الى العراق، وستيل من زحلق العراق الى صراع أهلي مسلح وجثث شوارع والقتل العشوائي وتفجيرات الأضرحة والأحياء السكنية للطوائف.

هو الفريق نفسه الذي أشعل الحرب الأهلية في كولومبيا عشرات

السنوات وأسس داعش هناك بعنوان» منظمة القبعات الخضر» الارهابية. تقرير مصور لقناة BBC وصحيفة الغارديان عن فرق الموت العر اقية التي أسسها على غرار فرق الموت السلفادورية. تلك المرحلة ليست في الماضي والخلف والتاريخ وهناك مخاطر جدية وحقيقية ومشروعة بتفجير الوضع من خلال اغتيال شخصية بحجم القس أوسكار روميرو في بلد عبارة عن كدس تبن يابس وحدث عابر يفجر أزمة كبرى وبعدها يندفع حشد من الغوغاء والعملاء: الأفعى نائمة في العشب والظلام والخيار السلفادوري جاهز. هناك صورة الجنرال ديفيد بتر ايوس قائد القوات الامريكية السابق في العراق مع آخر سفير أمريكي في سوريا روبرت فورد ومهندس خرابها ثم نائب السفير في بغداد، الصورة في كولومبيا في الثمانينات وفي الخلفية بعض أفراد منظمة» القبعات الخضر» الكولومبية التي نشرت المذابح وحرق المزروعات والمدن، لعشرات السنين في أطول حرب أهلية في القرن العشرين: الفريق نفسه الذي اشعل حروبا اهلية في امريكا اللاتينية ونقلوه الى العراق عام ٢٠٠٣.

"القبعات الخضر» في كولومبيا وفي السلفادور«كتائب الموت» وفي العراق «داعش»: العنوان فقط يختلف والأهداف نفسها والمصنع نفسه.

١٧

«الإبادة المنسية"

أول عملية إبادة حرب جماعية Genocide في القرن العشرين نهاية الحرب العالمية الثانية هي التي تعرض لها الجيش العراقي خلال حرب الكويت ١٩٩١ وبعد وقف إطلاق النار، لا نظام الحكم يومها ولا من بعده ولا من نخبه تحدث عن ذلك كما لو أن الـ ٦٠ ألف ضحية من الجنود دفنوا، أحياءً، في رحلة سياحية وعاصفة رملية.

كتب عنهم شعراء من كندا واستراليا وأمريكا، أما شعراء الوطن فلا وقت لديهم سوى للغزل والنوارس والعصافير ومناحات الحب لأن الحب لا يتأسس على مذبحة أو في الأقل التذكير بها ومن بين الشعراء الامريكان الشاعرة جنيفر ميدن التي كتبت قصيدة: دفنوا، أحياءً"، لا جدارية تخلد المذبحة كما غارنيكا بيكاسيو: في أكثر من حرب يكون قتل الجنود العر اقيين الأسرى أمراً عادياً لا يستحق الاهتمام وقد حدث مرات كإعدام الأسرى في السليمانية مثلاً في

آذار ١٩٩١ وفي غيرها. دفن جنود أحياء الجريمة الثانية في التاريخ الحديث بعد أن دفنت القوات النازية جنوداً أسرى سوفيت أحياءً وفي محاكم نورمبيرغ تمت محاكمة رموز النظام النازي لهذه الجريمة وغيرها كجرائم حرب. الولايات المتحدة وشركاؤها في التحالف يؤكدون ان قواتهم لن تهاجم القوات العراقية المنسحبة» * مارلن فتزووتر، المتحدث باسم البيت الابيض، ٢٢ شباط ١٩٩١.

هذا هو الفخ الذي نصب للجيش العراقي في حرب الكويت بعد أن زجه صدام حسين في حرب مشؤومة وتركه في عراء الصحراء بلا مظلة جوية وأمام طيران حديث لدول كبرى فرنسا وامريكا وبريطانيا وتحالف ثلاثين دولة كوليمة. كان جورج بوش يكرر: على العراقيين الانسحاب بلا قيد أو شرط، وحين سئل: كيف ينسحبون تحت القصف؟ كان يقول: عليهم أن يجدوا طريقاً. في ٢٥ شباط صدرت الاوامر للجيش بالانسحاب وحانت الفرصة للمذبحة الجاهزة وكانت قد جرت أفظع مذبحة قتل في التاريخ الحديث في صفحتين: الأولى مذبحة طريق الموت في طريق سفوان البصرة عند انسحاب الجيش وكانت الدبابات محمولة على شاحنات وفي وضعية غير قتالية والجنود في وضع الراحة والصفحة الثانية دفن الجنود أحياءً بواسطة جرافات رمل تنفث من مسافة نصف كيلم.

كان الطيران الأمريكي والحلفاء قد شن حملة قصف جنونية

على طريق سفوان على عدة أميال حتى تحول الطريق الى بحيرة دم وعجلات محترقة وجثث متناثرة في ٢٦ شباط شرعت وحدة المارينز الثانية مع اللواء المدرع « لواء النمر» مع وحدات أخرى في مذبحة على طريق الموت من سفوان الى البصرة بعد قراروقف إطلاق النار. تم قتل الجنود العزل وكانت الأوامرتقول: لا تدعوا أحداً ينجو. كانت وسائل الاعلام تحت السيطرة الامريكية تؤكد على الحرب النظيفة لكن تمكن مراسل ير افق الفرقة الثانية من نشر تقريره عن المذبحة التي لا توصف في «طريق الموت» وأما الجنود الذين رفعوا الر اية البيضاء فقد قتلوا حسب تقرير آخرمن الميدان وكانت الشاحنات التي تحمل دبابات تحمل الر ايات البيضاء. ١٠ آذاروصف المراسل مايكل كلي: على امتداد ٥٠-٦٠ ميل من شمال الجهراء الى الحدود العر اقية ، كانت المركبات المتفجرة والمشوية تتناثر على الطريق، اضافة الى الاجساد المتفحمة والمتفجرة لم يكن من السهولة التأكد اذا كانت هذه الاجساد لجنود او مدنيين لأن قوة الانفجارات وحرارة النيران كانت قد اذابت الملابس عن الأجساد المتفحمة والمشوية". لكن الجريمة الأخرى كانت في مكان آخرفي يوم ٢٤ و٢٥ شباط قامت القوات الامريكية باستخدام دبابات وجر افات لدفن الاف من الجنود العر اقيين أحياءً، نفذت ذلك ثلاثة ألوية من فرقة المشاة الآلية الاولى باستخدام تكتيكات لتدمير الملاجئ والخنادق التي كان يحميها الاف الجنود العر اقيين من الجنود المكلفين العاديين وليس

قـوات النخبـة.

وقـد كـوفـئ الـكابتن بيرني ولـيامز لمشـاركتـه بالجريمـة بالنجمـة الذهبيـة. وقـال "طالما انتهينا من ذلك ولـم يبق منهـم أحـد". حسـب مسـؤول أمريكي حـول التكتيكات، قـال ان اسـتخدام جرافات هـو اجراء معتـاد في تخطي العوائق والالغـام الارضيـة وهـذه المعدات الثقيلـة تسـبق وحـدات المشـاة والوحـدات المدرعـة لتمهيـد الأرض امامهـا وقـال المسـؤول إن أي قـوات عراقيـة كانـت في تلـك الخنـادق قـد دفنـت وقتلـت.

قـال الكولونيل انطوني مورينو قائد اللواء الثاني: "كل الـذي اعرفـه الالاف منهـم دفنـوا" ويقـدران قواتـه وحدهـا دفنـت حوالي ٦٥٠ عـراقي حيـاً، والى يسـاره كان هنـاك صـف مـن الخنـادق دفنهـا اللـواء الاول الـذي كان يقـوده الكولـونيل لـون ماجـارت.

في حـوار مع صحيفـة نيويـورك نيوزداي تحـدث ماجـارت ومورينـو في اول شـهادة علنيـة حـول دفـن الجنـود العراقيين احيـاء. قبـل المقابلـة لـم يذكـر ديك تشـيني وزيـر الدفـاع لكنـه اعترف بذلـك فيمـا بعـد. اسـتنادا الى تقاريـر ميـدان موثقـة:» التكتيـك الـذي اسـتخدم في دفـن الجنـود تضمـن اثنين مـن دبابـات ام وان أي وان، مثبـت فيهـا جرافـات مثـل اسـنان عملاقـة على كل جـزء مـن صـف الخنـدق. وتتخـذ

الدبابتان موقعهما على جانبي الخندق. وكانت المركبات البرادلي المقاتلة وحاملات الجنود المدرعة نوع فولكان كانت تتقدم على صف الخنادق وتطلق النار على الجنود في حين تهيل الدبابتان أكوام الرمل لدفن الخنادق بمن فيها» ـ صحيفة واشنطن بوست نقلا عن مراسل وكالة يونايتد برس نشرت معلومات مفصلة كذلك جريدة هارل تربيون، وصحيفة الغارديان البريطانية في ١٣ أيلول ١٩٩١ بعنوان» دفن جنود عراقيين أحياءً» كذلك التايمز البريطانية ومانفستو الايطالية في التاريخ نفسه.

لا حديث عنها في العراق حتى اليوم مع ان هذه الجرائم لا تسقط بتعاقب الزمن. الأرقام تتفاوت في مجموع القتلى في طريق الموت والدفن بين ١٠٠ ألف أو آلاف وعشرات الالاف وتكتم الطرفان الامريكي والعراقي على الجريمة لدوافع مختلفة. مجموع ضحايا الحرب من عسكريين ومدنيين بين ٢٥٠ - ٣٠٠ ألف ضحية. قال الملازم وير متبجحاً:

"لقد ابدناهم. وقعت المذبحة بعد اعلان وقف إطلاق النار".

في كتابها» الحرب القذرة النظيفة» تتحدث الكاتبة الفرنسية كريستينا عبد الكريم ديلان عن جريمة دفن الجنود بالتفصيل مستندة على وثائق وشهادات ضباط وصحف موثوقة لكنها فضحت

جرائم أخرى مرافقة لتلك الحرب القذرة وتقول:

" هذه الحرب كانت «نظيفة» كما تذكر الكاتبة على المنوال الذي قدمت فيه -أو بالأحرى سوقت فيه- للرأي العام العالمي عبر الشبكات الفضائية ومؤسسات الإعلام الخاضعة في غالبيتها للهيمنة الأميركية". وتضيف:

" يوم ١٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٩١ في الساعة الثالثة صباحا تحت لافتة عاصفة الصحراء التي انطلقت بإطلاق مائة صاروخ توماهوك من البحرية الأميركية الراسية في مياه الخليج. ومنذ الساعات الأولى من القصف الجوي تم تدمير ٩٠٪ من محطات الطاقة الكهربائية وأربع محطات كبرى لضخ المياه من مجموع سبع محطات يمتلكها العراق، كما تعرضت أغلب مواقع النفط ومخازن الوقود إلى جانب مراكز التموين الغذائي والمواقع المدنية من مساكن ومدارس ومستشفيات ومراكز اتصال وغيرها إلى عمليات قصف مسترسل".

قصة ضرب الكهرباء والبنى التحتية قبل الاحتلال لان الكهرباء هي الجامعة ومركز الابحاث والمزاج ووقت الفراغ والتعليم والتواصل مع العلوم وليست قصة انارة أو تدفئة. ضربها يعني ضرب المستقبل. مخطط إسرائيلي بأدوات أمريكية.

هذا يؤكد نية الحرب في التدمير الشامل لمراكز ومؤسسات مدنية

و اقتصادية وهدم المجتمع وترك النظام السياسي سالماً في حصار قاتل ثلاث عشرة سنة لكي يتفسخ المجتمع والنظام وهي سياسة متبعة حتى اليوم بعد الاحتلال، مع الاستهداف الخاص لمحطات الكهرباء التي تشل الحياة كافة والكهرباء اليوم تعني المستقبل وهو المشروع المستمربعد احتلال ٢٠٠٣ بعرقلة أي مشروع للكهرباء وهو قرارسياسي أمريكي وليست مشكلة تقنية على الاطلاق. تقول الكاتبة:

" تم إنزال ما يزيد عن ٩٥ الف طنا من القنابل على امتداد ستة أسابيع متتالية أي بمعدل ١٦ ألف طن في الأسبوع وهو رقم يزيد كثيرا عن مجموع كمية القنابل التي تم قصفها على ألمانيا والأراضي الخاضعة لسيطرة الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية".

تضيف كرستينا:

" لقد استخدم ما بين ٦٠ ألفا و٨٠ ألفا من هذه القنابل ضد السكان المدنيين العر اقيين وقتل ما لا يقل عن ٢٥ ألف شخص نقلا عن السلطات العسكرية الأميركية نفسها في الطريق الر ابط بين الكويت ومدينة البصرة جنوبي العراق إذ تم قصف ما سمي بطريق الموت الر ابط بين جنوبي العراق والكويت في الوقت الذي كان يمر به سرب من العربات العسكرية والمدنية يمتد على مساحة ١١ كلم تقريبا رغم الإعلان الرسمي عن وقف إطلاق النارمن طرف

القوات الأميركية. إلى جانب القنابل الخانقة للتنفس التي تعد علامة بارزة على التجديد العسكري الذي أدخلته الإدارة الأميركية ضمن ترسانتها التسليحية تم استخدام القنابل الموجهة بالليزر لاختراق المخابئ الأرضية الحصينة للجيش العراقي وهي قنابل تصل قدرتها على النفاذ إلى حدود ٢٥ متراً تحت سطح الأرض". تذكر الكاتبة هنا أن طائرة A١٠ كانت «بطل « المعركة وهذه طائرة دخلت طور الاستعمال منذ سنة ١٩٧٢ مستوحاة من حرب فيتنام، ولكنها منذ ذلك الوقت أدخلت عليها تحديثات هائلة إلى أن اكتملت نسختها الجديدة قبل حرب الخليج الثانية".

" من الوقائع المذهلة التي يذكرها الكتاب عملية انتشار ثلاث وحدات خاصة من الجيش الأميركي يومي ٢٣ و٢٤ فبراير/ شباط ١٩٩١ مزودة بصائدات أبرام التي تطير على ارتفاع منخفض بغاية ضرب الخط الدفاعي العراقي المتمركز في الحدود العراقية الكويتية البالغ عدد أفراده نحو ٨٠ ألف جندي تقريبا. وكانت نتيجة هذه العملية وفاة العدد الأكبر من هؤلاء تحت الركام الأرضي بسبب الاختناق والإصابات الجسدية البالغة بعد قصف مخابئهم وتدمير تحصيناتهم الأرضية. فقد صرح العقيد بانتوني مارينو قائد الوحدة الثانية من الجيش الأميركي:

" قد قتلنا آلاف الجنود العراقيين"، وأضاف: «بأنه قد رأى

العديد من أذرع الجنود العراقيين الماسكة بالسلاح وهي تتململ تحت التراب".

كيف يمكن لجندي مدفون تحت التراب يحمل بندقية وهو مختنق ولا يرى شيئاً؟ ذريعة منحطة لتبرير الجريمة لكنه يثبت أنهم كانوا أحياءً عندما وجدهم وبلا شك قتل الأحياء، وعندما سئل لماذا لم يقم بالانقاذ أجاب بصفاقة:

" إنها مهمة مقرفة ترك جنودي ينظفون الخنادق".

مقرفة انقاذ الجنود من الموت؟ أية همجية أنتجت هؤلاء؟يؤكد الكتاب: «إلا إن آثار الجريمة تبدو صارخة وفاضحة إلى الحد الذي لا يمكن إخفاؤه، أي جريمة استعمال الأسلحة المحرمة دوليا بما في ذلك الأسلحة الكيماوية والنووية والإشعاعات السامة واليورانيوم المنضب وغيره الذي نشر أمراضاً مميتة في المجتمع العراقي".

كل ما في العراق ملوث، الماء، الهواء، التربة، الزرع، السمك، ويحتاج العراق الى سنوات للتنظيف من شركات متخصصة بعد أن تلوثت التربة بالمواد السامة واليورانيوم المنضب وهناك منظمات دولية طبية تقول إن العراق بلد غير صالح للحياة لأن الماء والهواء والتراب والحقول ملوثة. قتل الحياة في العراق مستمر تحت ايقاع الرتابة التي تخلق الأمان الزائف. العراقي مشروع قتل في أية لحظة

حتى لو إنهار في شارع أو منزل بسبب مرض ما، لكن القاتل الحقيقي هو بيئة سامة تفتقر للحياة وإذا أردت قتل الطيور إقلع الاشجار وصحر الأرض ولو أردت قتل السمك جفف المياه: القاعدة نفسها في قتل البشر بخلق بيئة سامة خانقة. قتل « أبيض» سري.

لكن المهزلة الكبرى أن يعود الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣ لاستكمال مشروع خراب منهجي منظم مستمر حتى اليوم بطرق جديدة وخلق منظمات الارهاب والحصار الاقتصادي المقنّع وتحت نظام سياسي ممزق ومركب من قوى مختلفة متناقضة للتحكم عن بعد. نحن أمام مشروع سحق جرى عبر حربين وحصار وفي الأول كان بعنوان الحرب النظيفة وفي الاحتلال بذريعة الديمقراطية ولا حاجة بعد ذلك لشرح كيف كانت تطبيقات ذلك على الأرض.

المشروع لم ينته والمهمة مستمرة لكن

في زمن انقلاب المعايير تحول العراقي الى ارهابي يستحق القتل لو رفض الاحتلال وصار الاحتلال حارساً للعدالة ينفذ عمليات اعدام من الجو بطائرات مسيرة في شوارع بغداد.

١٨

لم يتوقف المطر عن الهطول كما لو انه يهطل دائماً وارتديت معطفي الواقي من الريح والثلج وشربت قهوتى وخرجت الى الشارع كما لو سافرت من لحظة وضع قدمي في عتبة الباب لأنني كنت منشغلاً بعالم بعيد كل البعد عن هذا الو اقع السوي والمستقر، كانت أشجار الصنوبر والسرو والصفصاف على طول الشارع لكني بلا إرادة فكرت في لعبة التخريب المنظم في العراق.

هل دخل العراق المرحلة الأخيرة من الخراب المنظم؟ هل يمكن تجاوز لعبة: البطء، القتل، الانهاك، التدرج في السحق؟ لماذا التآكل البطيء والاستنزاف المنهك وليس السقوط او الخراب السريع؟

التآكل البطيء من خلال الارهاب المسلح والاقتصادي وخلق الازمات، يُفسخ الدولة على مراحل ويحطم المؤسسات، والأخطر يفسخ القيم الاجتماعية ومشاعر التضامن والوطنية والنسيج الاجتماعي، في حين الخراب السريع يحافظ على كثير منها. بدأ مشروع سحق العراقي من محاولة شل ذاكرته التاريخية العامة، حرق كل ما يربطه بالماضي، مكتبات، متاحف، آثار، أي فقدان تسلسل الاحداث

لكي يضيع، والتسلسل حيوي لبقاء الانسان يقظا في الحاضر. بعد فقدان التسلسل تم تصنيع ذاكرة جديدة مشوهة، حرائق، قتل، انفجارات، صراعات مسلحة تتناسل، نهب ثروات، وعندما يُحشر أي انسان في العالم تحت عنف مستمر وشرس ووجودي، يبدأ العقل يدور في حلقة مفرغة، وتشتغل دوامات الضياع. لكن شل الذاكرة وحده لا يكفي، لأن بقاء عناصر أخرى جوهرية ثابتة قد تساعد على الثبات والتشبث والعودة الى الاستمرارية والتواصل مع الجذور، لذلك يجب زعزعة كل الثوابت التي ترتكز عليها الشخصية الانسانية، وفي هذه الحالة يجب زعزعة الأرض التي يمشي عليها، والأرض والذاكرة كعضوين في الجسد، بل ان عناصر الجسد العضوية هي نفسها عناصر الأرض، كيميائياً، لذلك قيل له عبر تلقين متواصل إن العراق ليس بلداً قديماً، العراق بلد مركب ومصنّع أوائل القرن العشرين بموجب وفاق دولي، وان كل التاريخ القديم غير حقيقي ومتخيل، أي انك ايها العراقي مخلوق غلط ترتبط بتاريخ غلط، وعليه يجب تصحيح التاريخ وتقسيم البلاد. بعد أن تتم زعزعة الأرض تحته، التشكيك بها، تبدأ عملية أخرى في السياق نفسه: قيل له ان العراق ليس وطناً، بل تجمع لقالق أو مهاجرين من بدو وفرس وهنود و أتراك، وعليه فإن مفهوم السلالة والعرق والأصالة اكذوبة كالأرض والتاريخ والذاكرة، واذا ضاع تسلسل السلالة وهو جوهري في العقل العربي والاسلامي، دخل الانسان في

دوامة عاصفة وضباب على مستوى الشعور واللاشعور بعد فقدان حلقة التواصل مع الماضي ومع الذات: هل هو هندي؟ طير حباري؟ بدوي تسلل عبر الصحراء؟ عربي؟ مسلم؟ سيارة مهربة؟ صندوق ويسكي مسروق؟ قبل أن يعثر على جواب، وهو غير موجود لأن الاسئلة غير صحيحة، قيل له عبر ضخ اعلامي كبير وجميل وحديث، من خلال مقدمات برامج فاتنات لأن العربي لا يتخيل ان تجلس فتاة حسناء و انيقة وجدية في استوديو وتلقي عليه اكاذيب، قيل له ان مفهوم الاصالة والجذور والسلالة غير ضروري في هذا العصر، ويمكنه خلق اصالة جديدة وسلالة جديدة بل حتى ان يمد نفسه في جذور جديدة، وما عليه سوى ان يعلق قرطاً في الاذن، أو سماعة هاتف خلوي لسماع مايكل جاكسون أو الفيس برسلي، وان يفتح الصدر لكي تظهر السلسلة الذهبية رمز العراقي الجديد، ولا حاجة لسماع داخل حسن الذي يغرد كذبا في البحث عن الصدق بين الناس لكنه لا يجده، أو سلمان المنكوب الذي ينعق في الخر ائب وهو سبب كل الحروب، أو بكائيات زهور حسين التي تدمي القلب، بل حتى الزي التقليدي لا حاجة له، ويمكن تمزيق البنطال من الخلف مع حزام ينزل أسفل البطن، انسجاماً مع الحداثة. ليس من الضروري، قيل له، أن يعرف هل هو عراقي؟ عربي؟ مسلم؟ زرزور؟ أم أنه مخلوق تم تجميعه كسيارة مسروقة، او علب كارتون للتتن المهرب، لأن الهوية العر اقية، وهنا الأخطر، مزحة كبرى من صنع المؤرخين، بل حتى ان

مفهوم الأب غير حقيقي ومشكوك فيه، فمن أجرى فحصاً للتأكد من سلامة النسب؟

قبل أن يفيق العراقي من هول الصدمات تحت ايقاع القتل لكي تضيع حلقات التوازن وتضيع معها الاسئلة الحقيقية وتتعمق الدوامة وينغرز الضياع قيل له، في الدستور، ان الجزء الجغرافي في الجنوب والوسط عربي والشمال غير عربي، بل حتى الجزء العربي يحتاج اعادة نظر لأن دماء فارسية وهندية وغجرية من كابول دخلت في الجينات، وإلا من أين جاءت رقصة الهجع؟ ألا ترى كيف ترقص الغجرية او الكاولية حتى ان جسدها يرتعش من رأسها حتى القدم كعصفور نصف مذبوح؟ هل تفرق بين هذه والدروشة؟ بين هذه و« الجذبة» في الشمال الافريقي؟ بل ان هذا الايقاع الر اقص العاصف هو طبل غابي من خارج المكان العراقي، ربما زنجي الاصل، وقد يكون من تقاليد الهنود السمر ابناء المستنقعات. ألم يثبت خبراء الموسيقى والرقص ان الفلامنكو هو تحوير للهجع العراقي تسلل الى اسبانيا عبر هجرات الغجر من العراق الى تركيا في العربات؟ ألا تلاحظ، قالوا له، ان العراقي حتى في ظروف الاستقرار قلق وخائف، والسبب ان حلم الغجري ليس في المكان القديم بل في المنعطف القادم، وذاكرته في الطريق المقبل وليس في الماضي؟ اما بابل الز انية حسب الوصف التوراتي فستزول يوماً لأنها عقاب إلهي بتعدد الألسن واللغات لكي

لا يفهم الناس بعضهم وليس رمزا للتنوع كما تعلم عبر التاريخ لذلك حولت القوات المحتلة بابل الى مكب نفايات عملاً بحكم النبوءة.

ثم ما هو التاريخ؟ هو اكذوبة كبرى ترسخت بالعادة والتكرار، بريمر وزلماي زادة وباتريوس وغيرهم هم صناع التاريخ الحقيقية وليس كلكامش الذي يتباهى به سوى شخصية عصابية مصابة برهاب الموت وصياد عصافير ومطيرجي وسكير بشهادة سيدوري صاحبة الحانة البابلية يوم جاء يشكو حاله بعد موت صديقه أنكيدو وشرب حتى الثمالة وخرج محمولاً على الأذرع بعد أن رفض دفع ثمن المشروب وتم رميه في الشارع مثل أي سكير مشرد لكي يخترع حكاية العشب والأفعى.

من يكون الرصافي صاحب التمثال الشهير والسترة المشتراة من الباب الشرقي من حاويات الملابس المستهلكة؟ ليس أكثر من زنديق ومنحرف. وبدر شاكر السياب؟ شخص عصابي قضى حياته يرهز على ظلال الشاعرة لميعة عباس عمارة ولو حقق شيئا في هذا الغرام الأحادي، لما كتب تلك الملاحم الشعرية عن الجوع والمومس العمياء، ولما تذكر تلك الترعة المنسية المسماة بويب، بل أن السياب ليس شاعراً أصلاً، كما كتب يوما عنه مالكو الحقيقة والشرف والتاريخ والمستقبل، وهو مرض عضال لا براء منه عند هذا الصنف العاجز والمخصي عقلياً وفكرياً، بل رجل مخابرات في السي، آي، ايه، مما

صدم الشاعر محمد الماغوط ، وكان مر افقاً له بسبب وضعه الصحي بطلب من الشاعر يوسف الخال، فكتب، مندهشا، بشجاعة، رداً على هذه الصفاقة العارية «: لا أستطيع تخيل السياب النحيل في بيروت وهو في قالب الجبس الطبي، كتمثال أبيض يمشي، يضع نظارات سوداء، ويجلس في مقهى وفي يده جريدة للتغطية وير اقب المارة". بعد أن ضربوه وهو في قالب الجبس وسرقوا حافظة نقوده المخصصة للعلاج من قبل رفاق الامس من الثوريين وقبل أعوام كتب ناقد عراقي مقالة بعنوان» ماذا تبقى من السياب؟» كما لو انه عطار أغلق دكانه وليس صاحب شعلة لغوية جعلتنا نفكر بطريقة مختلفة.

المطلوب تشويه كل الرموز الحية والميتة لكي لا يتمسك العراقي بقشة في هذا الغرق العام، لذلك تكثر أسئلة حائرة نتيجة هذا العصف من الشباب اليوم في مو اقع التواصل من قبيل: لماذا يا الهي خلقتني في العراق؟ لكن لماذا في الجنوب؟ لماذا من هذه الطائفة او تلك؟

والجيش العراقي؟ ما حاجة العراقي لجيش صار عرفاء فيه جنرالات، ورعاة اباعر كولونيلات؟ يحرس من هذا الجيش وهو ملكية عقارية لدكتاتور طائش محروس بقطيع من الرعيان؟ الجيوش تحرس أوطان والعراق ليس وطنا بل خريطة مزورة من زمن سايكس

بيكو وهو في وطن جديد في مرحلة التكون لذلك من الأفضل حل هذا الجيش، وفتح الثكنات ومخازن السلاح للناس لكي يموت من يريد ويقتل من يشاء لأن للحرية باب حمراء بكل يد مضرجة تدق. الم يقرأ هذا في القصيدة؟

ما حاجة العراقي الى التاريخ بعد اليوم، بعد الحرق والنهب والتخريب؟ بل ما حاجته للارتباط بالسلالة والجذور؟ هناك بدائل: السي اي ايه، داعش، منظمات دعم الثقافة الامريكية، افلام البورنو، مجلس التعاون الخليجي، الجامعة العربية، الموساد.الخ. يقول المؤرخ كوردل هيل:

« لكي تلغي شعباً، اجعله يتبنى ثقافة غير ثقافته، ابدأ بشل ذاكرته التاريخية، الغ ثقافته وتاريخه، اخترع له تاريخا آخر غير تاريخه، وثقافة أخرى غير ثقافته،اجعله يتبناه ويردده، عندها ينسى هذا الشعب من هو، وينساه العالم».

هذا التدمير الممنهج والمنظم منذ عام ٢٠٠٣ لكي لا نذهب لسنوات الحصار وهي حلقة مفصلية في مسلسل محو العراق من المستحيل كسر حلقاته من داخله، من داخل العملية السياسية التي تم تصنيعها وتركيبها من أجل صيانة هذا المشروع والبحث في داخلها عن حل مثل من يبحث عن مخرج طوارئ في نفق مغلق، لكن» الخيار الثالث«

القادم من خارج هذا المشروع، من خارج هذا الصندوق السياسي المغلق، من خارج هذه الدوامة، هو الذي يكسر بعض حلقات مشروع المحو الجذري، مع بقايا ثقافة حديثة حية ويقظة تتنامى وتتسع كل يوم تقاوم في مناخ صاخب من الدوي والردح والضجيج والغبار لكي يتشابه البقر. ثقافة محلية متجذرة في وعي الناس، خطأً أم صواباً، قاومت مشروع «الاقتلاع «بمشروع مضاد هو «التشبث“ وهو أمر منطقي وطبيعي أمام كل عاصفة عاتية تهدد الجذور، جذور البشر أم جذور الأشجار. لو تُرك الأمر لسياسيي العراق، لصار وطناً لنسور الجيف وكازينو للقمار والسمسرة والصفقات أو مخيمات فارين أو ثكنات مهجورة تعوي فيها، جوعاً كلاب الليل.

*

عدت الى المنزل ووجدت في انتظاري نرجس ابنة خالة ابنتي وزوجها النرويجي الأحمر الشعر وفي صالة المنزل كان الحديث عن عملية إبادة غزة وما هو الحل والتوقع وكل ما استطعت قوله لشباب صغار إننا أمام فضيحة عالمية وتداعى قيم في فضاء مفتوح وكانوا يهزون رؤوسهم بالموافقة. توقف الثلج.

١٩

«شبح متنقل يسحق بأقدام ثقيلة».

أرسل بول أوستر شخصية أوين بريك للبحث عن المؤلف وقتله لأنه من اخترع الحرب، لكن المعضلة أن الحرب لا تدور في رأس المؤلف بل في رؤوس رجال مال وسياسة ومافيات وشركات وجيوش ومخابرات.

من بين هؤلاء الكولونيل جيمس ستيل والكولونيل كوفمان ومفوض الشرطة الأمريكي بيرنارد كيرك وهو ابن عاهرة قتلها قوادها وكيرك طفل ثم صار هو نفسه يدير شبكة دعارة، وكيرك ابن شوارع وحانات رخيصة، وعليه أكثر من عشرين دعوى قضائية تتراوح بين الاغتصاب والسطو ومشاجرات المر اقص والحانات. عين عام ٢٠٠٣ كوزير للداخلية في العراق بأمر من جورج بوش الذي أعجب به خلال انهيار البرجين عندما قام بدور استعراضي كشرطي انقاذ وهذه كل مؤهلاته، عاث فساداً في العراق وبعد عودته الى أمريكا دخل السجن بعد السطو على متجر. فكيف تصرف في عراق هو وزير داخليته؟

عن بيرنارد كيرك يمكن العودة الى موقع» فولتير» للكاتب تيري ميسان الفرنسي مؤلف» الخديعة الكبرى» عن ١١ ايلول الأمريكي، وكتاب» حياة امبراطورية في مدينة الزمرد: المنطقة الخضراء» راجيف شاندرا نائب رئيس تحرير صحيفة واشنطن بوست.

هناك شبح يجول طرقاتنا في الليل والنهار ويسحق كل شيء في طريقه: الزهوروالاطفال والناس والأمل من دون أن يُقبض عليه ليس لأنه غامض جدا بل لأنه أكثر الأشباح وضوحا: هذا الشبح يتموه ويتقمص ويلعب أدوارا كثيرة، مرة يأتي على شكل فتنة نائمة ولا ندري لماذا نترك الفتنة تنام قرونا من دون ايقاظها لمعرفة الاسباب لكي لا تستيقظ بعد تراكم طويل وتخرب حياتنا؟ ومرة يأتي الشبح على شكل سيارات مفخخة أو عبوات ناسفة أو كواتم صوت، بل صار يأتي في السنوات الأخيرة كمثقف أنيق وحداثي يتغزل بالفراشات والعصافيروالبياض والتقدم والنقد الادبي وتقام له احتفاليات في زمن مشوه. يقتل الشبح اليوم في هذه الطائفة او الشارع وغدا في شارع طائفة أخرى، اسلوب القتل العشوائي والمذابح والغموض والمجهول ليتزحلق العراق من مقاومة الاحتلال الى احتراب أهلي كما في تحقيق استقصائي لصحيفة الغارديان البريطانية The Guardian مع محطة BBC.ويأتي في مناسبات على شكل مؤتمر ظاهره انقاذ الوطن وباطنه الوصول الى السلطة والثروة، لكن هذا الشبح الذي

لا يسمى لا يتوقف عن التجوال في شوارع العراق وفي شوارع بلدان عربية، بل يتجول في اعماقنا ايضا كمحطة استراحة من الفتك. الغريب في الامر انه قد يحمل كل الاسماء دون أن يسمي نفسه هو الا بعناوين مضللة لا تقود الى شيء بل تؤدي الى متاهة. هذا الشبح الواضح لا يعرف غير السحق والانفجار والقتل: يقتل على الهوية، ويقتل على السحنة، ويقتل على الزي، ويقتل على العقيدة، ويقتل على الزيارة، ويقتل على المنصب، وعلى المظاهرة، وعلى الأدب، وعلى الخطأ الانساني، وعلى الاشتباه، والاختلاف وحتى يقتل سهواً، قتلا ماديا أو أخلاقيا حسب الظروف. لكن أحداً لم يقبض عليه.

هو الواضح العلني، الناصع الشكل واللون والغاية والهدف والتوجه. يستطيع تجاوز كل نقاط التفتيش بل قتل حراسها اليقظين والنائمين، ويستطيع المروق كالريح في السنابل في جلسات البرلمان واغتيال من يشاء، والجلوس في صالات السلطة العليا وقلب الكراسي بعد الانفجار، بحيث تصير الرؤوس في مكان الأحذية، وتصبح الاحذية رؤوسا، ومع ذلك لا أحد يقبض أو حتى يشير الى هذا الشبح العلني المتجول صاحب الاقدام الثقيلة.

قد يمر في الليل من تحت نو افذ البيوت النائمة. البيوت النائمة لا تعني البيوت الآمنة، ويترك علامات في الشارع، علامات واضحة مثل جثة أو أكثر كإعلان على انه مر من هنا، كما يترك عشاق الزمن

النقي مناديل أورسائل حب في فتحات الحيطان قديما، وقد يعقد صفقة اقتصادية ضخمة مع شركات اجنبية دون أن تدخل الصفقة في حسابات الدخل القومي، وقد يسافر بضعة أيام من اجل الراحة والاستجمام والارهاق من جثثنا المتعفنة في المز ابل لكي يعود بحيوية أكبر.

هذا الشبح لا يستحم بالماء لأن دمنا وفير وغزير ومجاني. هذا الشبح لا يأكل الطعام العادي ليس لأنه يعلس تاريخنا وأمننا الوطني وتر اثنا واجسادنا ويفتك بأرواحنا وجعلنا نهذي مع ان لحمنا يتطاير على الاشجاروالنو افذ والحيطان من الانفجارات، لا يأكل الطعام العادي لأنه يتغذى من البلادة والاستقالة العقلية والعمى العقلي الذي جعله هو الواضح العلني من أكثر الأشباح غموضا.

من قال اننا ضد التشبيح العام في السياسة والثقافة والمعرفة وفي غيرها؟ التشبيح ليس اللثام بل الهروب من مواجهة الو اقع الحقيقي المختفي، والتشبيح هو الرطين وعلس الكلمات في غير مكانها الحقيقي، والتشبيح هو سطوع الحقيقة لدرجة ان « السطوع» يجعلها غير مرئية أو عادية .تطبيع العاهة.

هذا الشبح قد يضرب اليوم هنا في ساحة وغدا في قاعة أو شارع، وقد يمر في مؤتمرات ومسيرات ومظاهرات وجنازات، وقد يطالب

بحكومة انقاذ وطني، أو دعم الثقافة الوطنية، لكن أحداً لن يسميه أو يشير اليه، ليس لأنه لا يعرف في الغالب، بل لأن ثقافة الشبح تلغي الانسان وتلغي الرؤية وتلغي الو اقع الحقيقي وتعتقل الانسان داخل جلده. ولا يستطيع ألف بول أوستر تتبع خطو اته أو قتله من ألف أوين بريك. هذا الشبح من الوضوح بحيث لا تراه العين، ولأنه يتكرر يصبح مروره مضحكاً ومنتجاً للنكات عن النجاة من الانفجار، الظاهرة الواضحة تصبح غير مرئية من العادة والتكرار كماكنة طحن مثلا مجاورة للدار يتلاشى دويها مع الوقت أو قطار مجاور. ذئبنا المتجول لا يهمه الشبع بل القتل مع التلذذ وهو أخطر تطور في سلوك البربرية الحديثة على قول اندريه مالرو. هذا الشبح خطر، لأن الجزء الكبير من صورة ذئبنا المدلل على صورتنا، لذلك لا نراه حين يمر كعاصفة أو انفجار أو شلال دم أو مظاهرة أو برنامج سياسي لسرقة آخر ما تبقى من أمل.

تم القبض عام ٢٠٠٦ على اثنين من المخابرات البريطانية من جهاز MI٦ فريق اغتيالات لاثارة الفتنة في البصرة ببنادق قنص ومعدات تفجير بزي امرأة وزي رجل تقليدي لكن الدبابات البريطانية اقتحمت مركز الشرطة وساوته بالارض لانقاذهما قبل الاعتر افات. الشبح هو الأكثر وضوحاً وهو ير انا لكننا لا نراه بل لا نريد أن نراه.

٢٠

الأشباح العلنية كثيرة في بلادنا ولا شك ان الكولونيل ستيل مطلع على تاريخ المذابح والنسيان لذلك أوغل في القتل بشهية وحش بلا تردد ولا خوف ولا قلق من مساءلة، ومن ساعده في ذلك عناصر محلية عريقة في القتل، وكان على شخصية أوغست بريل توجيه أوين بريك لاغتيال شخصيات غير المؤلف المتخيل. هل كان بول أوستر حاضراً حفل اعدام أسرى عر اقيين في السليمانية بعد ان سلموا أنفسهم؟

الجنود الذين سلموا أنفسهم في آذار ١٩٩١ الى حزب الاتحاد الوطني في السليمانية تم اعدامهم في قاعة بحضور مصور الماني وثق الحدث ووضع كتابا بعنوان: جريمة حرب **Kriegsverbrechen** تم اعدام بعضهم بالبلوك على الرأس كما في الصور ولعلماء النفس تفسيرهم لهذه الطريقة من القتل التي تعكس الغل والتلذذ عكس البربرية القديمة التي تكتفي بالقتل بلا تلذذ. تطور منحرف في البربرية حسب تعبير الروائي أندريه مالرو.

واضح ان الجنود وعددهم أكثر من ١٣٠ في حالة استرخاء بلا سلاح وهم من فقراء الجنوب. لا يمكن نسبة الجريمة الى شعب بريء بل هي مسؤولية أحزاب فاشية عنصرية مارست حملة اغتيالات بعد الاحتلال بتعاون مشترك بين جهاز استخبارات البارزاني البارستين وجاهز استخبارات الاتحاد الوطني الطالباني دەزگای زانیاری وكلاهما من تأسيس الموساد مع مخابرات أجنبية ضد علماء وأطباء وطيارين ورجال قانون لافراغ العراق من الطبقة المتوسطة لكي يصبح مجتمعاً بلا رأس كإفغانستان وعرقلة بناء دولة حتى اليوم من خلال خلق مشاكل لا تنتهي.

غابريل ماركيز كتب روايته الشهيرة: « مائة عام من العزلة» عن مذبحة اضراب عمال الموز التي عرفت بمذبحة سانتا ماريا التي ارتكبتها القوات الكولومبية التي تعمل لصالح شركة الفواكه المتحدة الامريكية وهم أقل من عدد الجنود الأسرى، ليس المهم العدد بل مبدأ القتل. كان ماركيز يوم المذبحة صبياً لكنه لم ينس، لم تشغله نوبل ولا مباهج الحياة ولا مراقصها ولا شهرته الواسعة، بل جلس ليكتب وفي قلبه جمر وفي يده قطعة ثلج. لم تقترب رواياتنا من هذه المناطق لانها مشغولة بالبار والمقهى والصالون وهموم المثقفين وكل الأماكن المغلقة ولا تقترب من الأماكن المفتوحة حيث حكايات الهامشيين والمنفيين في بيوتهم. حتى عناوين الروايات

مكرسة للابهار مثل عصا سارتر ومكنسة كامو ولحية همنغواي والخ. كثير منها يتحدث عن مخطوط عثر عليه تعويضا لانعدام التجربة وهذا المخطوط الخفي استهلكته الرواية العالمية ونسي تماماً.

قبل ماركيز بخمس سنوات كتب الروائي سوموديو روايته الوحيدة: البيت الكبير» عن المجزرة نفسها وكان عمره أربع سنوات ومن الواضح حسب النقاد تأثيره على ماركيز الذي لا يخفي ذلك بل كتب لها مقدمة.

اخفاء الجريمة جريمة أخرى والتستر عليها ونسيانها والخوف من الحديث عنها هو ما يشكّل « مناخ الجريمة» الذي سيتكرر في جرائم جديدة كما حدث وسيحدث.بالذاكرة الحية اليقظة أوقفت الشعوب القتل الرخيص ووضعت الانصاب والجداريات في الشوارع لكي لا تنسى ولا تتكرر وكي تؤرخ للقتلة أيضاً، وعرف القتلة أن الذاكرة الحية لا يمكن المغامرة معها في حين تتراكم المجازر عندنا ونحن كطابور أمام مسلخ في صمت القبور بل الانشغال بكل ما هو عابر وتافه.اسرائيل تطالب برفاة الجاسوس ايلي كوهين الذي أعدم في دمشق قبل ٦٠ سنة تقريباً بل قامت بعمليات تسلل عسكرية مغامرة لمقابر بحثا عنه وطلبت من روسيا الوساطة. مشكلة بين الصين واليابان منذ أكثر من قرن بسبب اعدام اليابان أسرى صينيين وتطالب الصين اليوم بالاعتراف والاعتذار: هكذا تشكل الشعوب

شبكة حماية لمواطنيها وهيبة.

كان آسرو الجنود كما في الصور في انتظار الأمر القيادي من الحزب، الذي جاء بهاتف من كلمة واحدة كسكين:»أعدموهم“.

ثلاثة من قيادي الحزب والقرار يومها هم: جلال الطالباني وبرهم صالح وعبد اللطيف صاروا رؤساء جمهورية. أين رفات هؤلاء الجنود الفقراء لأجل دفنهم وانهاء معاناة الأهل في الاقل؟ هؤلاء الثلاثة كانوا قادة يوم صدر القرار ويتحملون المسؤولية السياسية والاخلاقية والقانونية عن الجريمة أحياءً أم موتى كما حدث مع الدكتاتور. لا نتحدث عن عقاب وحساب لان القاتل اليوم هو من يحاسب، لكن هذا النوع من الجرائم لا يسقط مع تعاقب الزمن ولو كان القتلة موتى. هذه ليست الجريمة الأولى في اعدام أسرى جنود. لماذا لم تصدر ادانة واحدة من كل الاحزاب؟ السبب لأنها جميعا مارست المجازر والاغتيالات والتصفيات ضد الخصوم وحتى الرفاق ومن مصلحة الجميع الصمت والتغليس لكي لا تفتح علبة الأسرار والدم وكما يقول المثل الانكليزي» «لا تبيع الفحم في نيوكاسل» التي تشتهر بالفحم ويقابله المثل العراقي «لا تبيع الماء في حارة السقايين».

الجماعة أصحاب كار وحرفة وسوابق ويعرفون بعضهم. صورة قبل الاعدام لمصور الماني وثقها في كتاب «جريمة حرب» يجب أن

تتحـول الى جدارية في السـاحات العامة كعقـاب للقتلة كما تفعل شعوب العالـم لكي لا ننسى، لا نغفر.

٢١

«رسل صدام الاثنا عشر»

رسالة في البريد الالكتروني من فريدة تقول إن العقيد حازم منزعج من محاولة اغتياله في روايتنا» ولادة الذئب» التي لم تقع في الواقع وقد أفزعت زوجته ويقترح علينا زيارة سجن صدام حسين بعد إعدامه والتعرف على» حوارييه الاثني عشر» ورغم موت صدام وجورج بوش الأب لكن الحروب لم تتوقف، وكل ما يفعله أوين بريك عمل لا جدوى منه سوى اخذنا في جولة خراب عن مساوئ الحرب. مع الرسالة صورة لها متألقة ومشعة كما لو انها خرجت تواً من الحمام. كتبت لها رسالة مقتضبة أعدها بزيارة في أقرب فرصة ما أن تتوقف موجة الغبار الأحمر. في ملاحظة أخرى تقول ستكون فرصة لك لا تعوض لزيارة الريف العراقي هرباً من ثلوج النرويج وشمس منتصف الليل والامطار المستمرة.

فكرت في ان فكرة الذهاب الى سجن صدام بمساعدة عقيد التحري فكرة لا معنى لها لان هذا الكائن ليس شخصاً بل عقلية وذهنية ونحن لم نخرج يوماً من سجونه حتى بعد موته وكل ما حدث بعد الشنق أننا قتلنا وهماً وظلت خرافة القرون حية لأنه حارس

السلالة.

عاش صدام حسين في السجن الأمريكي في قصره الرئاسي في الظلام هو الآخر وبكل يقين شرع في بناء عوالم موازية عكس الو اقع، كما ان» السجين في قصره» ليست المرة الأولى يعيش تجربة السجن في قصوره في ذروة سلطته لأنه بشكل ما كان سجين قصره أيضاً مع اختلاف الحراس.

بلا فهم من هو صدام حسين سيبقى الجزء الرئيس من التاريخ مخفياً، و ابعد من ذلك سيبقى الحاضر والمستقبل غامضاً لأنه خلاصة تاريخ السلطة وعلاقتها بالمجتمع ولقد ضاع صدام الحقيقي بين المدح والذم، وهي الثنائية السطحية التي نرى فيها كل الظواهر حتى أنفسنا.

قبل ان يكون سجين قصره كان سجين اوهامه و افكاره النمطية الصلبة المقولبة مثلنا تماما ويحتاج الى قراءة مختلفة لاننا بدون ذلك سنسلك الدروب الملتوية الوعرة الخطرة كما نفعل اليوم وغداً. قراءة صدام تحتاج الى عقل هادئ يرى من خارج منطقة العطب وهو أمر صعب. يكمن التاريخ والحقائق في الزو ايا المنسية وفي التفاصيل الصغيرة المهملة، ونادرا ما يركز المؤرخون على ذلك، وخلف الواجهات والخطابات والاعلانات تنام الحقائق تحت الظلال

المعتمة، وهذا هو مجال عمل الأدب والفن.

هل عرفنا من هو صدام حسين كما هو الذي صنع حياتنا في الماضي والمستقبل؟ أشك في ذلك عدا الوجه العلني للدكتاتور، لكن خلف هذا الوجه تكمن وجوه عدة و أقنعة، وخلف هذه الأقنعة اصطاد كثيرين عبر نسيج العنكبوت. صدام حسين ليس هو نفسه في كل المراحل في الاقل في الظاهر، لكننا حفظنا له وجهاً واحداً، وكما وقعنا جميعاً في ثنائية كراهية وحب صدام، و انقسمنا الى فريقين و أكثر، وقع حراسه الأمريكان في غرامه في الفخ نفسه الذي نجره لنا، والأقنعة نفسها لكن محورة حسب الظرف.

صدام حسين السجين ليس صدام حسين الطفل المشرد وليس هو الشاب المسلح المليء بالعنف والضغينة ضد مجتمع لكنه وجد في الايديولوجيا غطاءً لاخفاء شخصيته ورجل الاغتيالات وشقاوة الشوارع وليس هو النائب وليس هو الجنرال والمحارب والرئيس وزعيم الحزب والشاعر والروائي، وليس هو المهزوم في الحرب والسجين، والعزل والفصل بين هذه الشخصيات هو من خلق اختلاف زوايا النظر له، لكنه خلطة من كل هذا التعدد في الشخصيات وما خفي أعظم.

العقدة القاتلة التي خربت حياته وحياتنا من بعد في كونه مزج

بين تقاليد شقاوات أو فتوات الشوارع وبين الايديولوجيا السياسية ونقل تقاليد الاولى الى الثانية، ولم يخرج من تلك العقدة حتى النهاية رغم الفرصة الهائلة له في المراجعة.

في مجتمع القمع تتشظى الشخصية multiple personality disorder حسب علماء النفس الى عشرات بل مئات الشخصيات المتناقضة جداً داخل فرد واحد، للتحاشي او الخوف والحيل،

ويتم الانتقال الفوري من شخصية إلى اخرى بسلاسة حسب المكان والظرف والقوة والنفوذ والخ وبلا وعي أو توعك، لكننا لا نلجأ للعلوم في التفسير لكل ظاهرة عدا اللغة السياسية الانشائية العاجزة، وسواء رغبنا في سماع ذلك أم لا، لكننا نتعامل مع بعضنا من خلال أقنعة وحوارنا حوار أقنعة.

صدام حسين مع الطباخين والحدائقية والحلاقين والسواق شخصية مرحة متساهلة لأنهم لا يشكلون تهديداً له، وفي مذكرات بعض هؤلاء كل المدح له، لكنه مع الجنرالات ورفاق الحزب والناس يظهر بقناع الغطرسة وفي مذكرات هؤلاء كل القدح والذم له، لا الصنف الأول عرفه ولا الثاني لأن كل طرف رأى الوجه الواضح المباشر وهو غاطس في السرية وهو الدرس الذي تعلمه من ميكافيلي في أن على الحاكم أن يشيع الخوف، لأن الاحترام يغري بالتجاوز.

عندما كتب لنا المرحوم هادي العلوي رسالة شخصية الى السجن الباكستاني قال فيها إن صدام حسين ظاهرة عراقية على مر العصور وحتى اليوم وهو أستاذ التاريخ الاسلامي و أفضل من كتبه من منطقة تفكير مختلفة، فهو كان على صواب و أثبتت الأحداث أن النسيج الاجتماعي والسياسي والتاريخ والتراث والثقافة والعقلية قادرة على إنتاج غيره، لأن البيئة والرحم والحاضنة والمناخ العام هو نفسه ولم تحدث قطيعة معرفية مع الماضي القريب ولا مع التاريخ والقطيعة لا تعني الانفصال بل التصفية والتنقية لكي لا يتكرر وصدام ليس منحرفاً بل الابن الشرعي للتاريخ والسياسة والمجتمع والعقل السياسي الرث.

الجنود الملقَّبون بـ «السوبر اثنا عشر Super Twelve)» الذين تولوا حراسة صدام في السجن الأمريكي الذين كانوا خائفين أول الأمر من مهمة حراسة الوحش، وللمفارقة يقول المؤلف ساخراً إنهم بعدد حواريي المسيح وكان محظورا عليهم:»كتابة مذكِّراتهم أو حتى ذكر طبيعة مهمتهم في تواصلهم مع أحبائهم في الوطن" كما جاء في كتاب سجين في قصره – ويل باردينوربر الذي عاش مع الجنود، وقضى أياما في توثيق شهاداتهم، انتقلوا من الخوف من « الوحش» الى الوقوع في غرام» العم» كما لقبوه، لكن ذلك مر عبر سلسلة طويلة من الفخ الذي نصبه صدام لهم كما نصبه لنا ولغيرنا، كما

نصبه للعشيقة اليونانية باريسولا والتظاهر بحبه لاغنية: غرباء في الليل» للمغني فر انك سيناترا و أية محاولة لفهم عالم صدام حسين بالعقل والمنطق لا تؤدي الى نتيجة لأنه ظاهرة لا تخضع للعقل السوي والمنطق السليم وتمضي في كل الاتجاهات.خلال سنوات سجنه الامريكي تمكن صدام من بناء شخصية مختلفة ونقيضة للشخصية الشائعة عنه لحراسه. تمازح معهم وقدم لهم السيجار وكانوا يسمعون الاغاني الغربية والامريكية من زنز انته من خلال راديو صغير وحدثهم عن حياته الخاصة وعن احلامه في الزواج من فتاة صغيرة لو خرج من السجن واهتم بشؤونهم الخاصة بل ارسل رسائل الى زوجاتهم عند الاجازات ومع الوقت صاروا ينادونه ب» العم"، اختفى الوحش وظهر الوجه البشري الناعم والرقيق، ورغم أن هؤلاء ير افقونه الى قاعة المحكمة ويسمعون خطابه الحماسي في قتل العدو الامريكي، أي قتلهم، لكنهم يستغربون من أن الرجل نهاية المحكمة يجلس مع من يحرض عليهم بالقتل ويتبادل السيجار والمزاح والطر ائف، حتى ان هؤلاء عاشوا يوماً أسود اللحظة التي سلموا فيها صدام حسين لكي يعدم.

خلال متابعة سلوك صدام مع حراسه لا تكف صورته عن اقتحام خيالي عندما شارك في محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في ٧ تشرين الاول ١٩٥٩ في شارع الرشيد وسجن لكنه تمكن من

بناء علاقة خاصة مع الحراس حتى تمكن من خداعهم والفرار من السجن من نافذة مرحاض مطعم ومشرب خلال ذهابه للامتحان في الثانوية برفقة الحراس حيث كان سعدون شاكر ينتظره خارج نافذة المطعم بسيارة بعد أن سكّروا الحراس. منذ تلك اللحظة تغيرت حياة حراسه الأمريكان، بل نهاية مهمتهم وعودتهم الى الحياة» العادية» وجدوا أنفسهم عالقين في عالم صدام حسين، وهو عالم غرائبي لم نقترب منه ونحتاج الى عقل هادئ غير جريح للاقتراب منه، وهو أمر صعب اليوم. كما فعل يهوذا الاسخريوطي في خيانة المسيح وهو أحد حوارييه، فعل أحد حواريي ورفاق صدام وقاد القوات الأمريكية الى وكره، مع الفارق الكبير بينه وبين المسيح ومن حسن الحظ لم تكن هناك حمامة تبيض ولا نسيج عنكبوت حول الحفرة لكنا أمام أسطورة مدوية.

ماذا حل ب» السوبر ١٢» أو حواريي صدام بعد أن بنى سيناريو غريب يتناقض مع الصورة النمطية عنه،

من الواضح جداً أن صدام قرأ جيداً كيف استطاعت شخصيات كبيرة في التاريخ من بناء هندسة ثقافية واخلاقية وفكرية لاصطياد الناس حتى أن بعض تلك الشخصيات بنت إمبراطوريات كبرى وهددت العالم.

ماذا حل بحواريي صدام حسين الـ ١٢ وهم عدد الحراس وهو الجزء الخفي الذي لا يقترب المؤرخون والدارسون منه؟ هذه مصائر ونهايات بعضهم ولا يختلف الاخرون عنها:

١: الجندي كريس تاسكر:

عاد الى الاهل ليحدثهم عن صدام حسين الذي لم يكن سيئاً كما يقول، وإن أحداً لن يفهم الوضع حسب وصفه. سيترك الجيش وقد لاحظ والداه ان حياته تغيرت بل انقلبت من طفل لطيف الى كحولكي وسلوكيات مقلقة وشرود ذهني حسب وصف أمه.

٢: الجندي بول سفار:

بعد سنوات من حراسة صدام صار سجيناً في سجن هيزكاونتي بسبب تزوير شيكات بلا رصيد لتمويل المخدرات وصار صدام ملهمه في تحمل ظروف السجن، سقط في شرك الكحول والمخدرات وتلقى علاجا من اكتئاب « ما بعد الصدمة PISD مع أنه لم يشارك في مهمة قتالية فلماذا الصدمة؟ وصف حالته بأنه» اختفى من وجه الأرض وذهب بعيداً جداً". خرج من السجن ولم يخرج من سجن صدام حسين مثلنا.

٣: روبرت أليس:

كان الأقرب الى صدام وعاد الى بيته لكنه لم يعد الى عالمه وشخصيته، وظل عالقاً في زنزانة العم، وحتى في رحلة في سفينة الى جزيرة كايمان في هاواي عندما اخرج السيجارليدخن على سطح السفينة في جو مشرق وشم رائحة السيجارنفس النوع الذي يحبه العم، بزغت في ذهنه صورة صدام حسين. عاش منزوياً في منزله مع زوجته وشعرت زوجته ريتا بالقلق بعد أن ابتعد عنها، وكان يحتفظ بقصيدة صدام المهداة الى ريتا بخط يده التي تتحدث عن:»النجوم والقمروالسماء“التي لم يكن صدام يراها في سلطته ولا يحفل بها، بل نحن من جعلنا نرى نجوم الظهيرة، ورغم محاولاته الخروج من عالمه لكنه مات بمرض قاتل.

٤: الجندي: آدم روجرسون.

علم والده أن ابنه تغيرتماما من عودته من العراق،

اشارات توترنفسي وأذهل العائلة عندما قال لهم:

” أشعرأنني مجرم كأنني قتلت شخصاً مقرباً مني“.

السبب لانه سلم صدام للاعدام وهو حاول استعمال السلاح لحظات الاعدام لكن جندياً مسك به، لم يفهم كيف أنه شارك في تسليم الشخص للموت الذي كان مكلفاً بحمايته؟

شعر روجرسون بالذنب كما شعر يهوذا الاسخريوطي الذي جن في النهاية ثم انتحر، لكن التاريخ هنا في دورة مفرطة في السخرية.

٥: الجندي ستيف هتشينسون:

عندما أعدم صدام حسين كان ستيف خارج القاعة لكنه سمع صوت فرقعة الغطاء المعدني وفتح الكوة تحت صدام عند سحب الحبل في تلك للحظة يقول علمت انني ساترك الجيش، ومازال صوت الارتطام عند سقوط صدام أو العم يطارده، يستيقظ مرتجفا من النوم في الليل وتقوم زوجته الممرضة بفحص ضغط الدم فتجده مرتفعاً.ساعة ريموند ويل الثمينة التي وضعها صدام في معصم ستيف قبل أخذه للمشنقة ذلك الفجر، صارت هي التوقيت الذي يشير الى أن زمن ستيف توقف على ساعة العم، وفي هذه النقطة تساوينا مع ستيف: نحن جميعاً، من يكره ومن يحب ،ضحايا وجلادين، توقف الزمن عندنا عند تلك الساعة، بعد أن تركنا صدام حسين سجناء زنزانة عقلية لم نخرج منها، وتلك الزنزانة تقوم على فكرة:السلطة غنيمة حرب، والشعب أسرى معركة.

لم نعرف من هو صدام حسين ولا هو عرفنا ولم نعرف من نحن. كنا جميعا في منفى.

٢٢

كما يفعل أوغست بريل « أستلقي في الظلام و أقص على نفسي القصص. تجمع لدي العشرات منها. كل ما ألتمسه شفاء علاج يدرأ الكآبة». بريل بخلق عالمه الموازي يحاول الشفاء عن طريق القصص بالطريقة التي تعجبه، لكن بريل ضحية مؤلفه بول أوستر الذي حوله الى مقعد بسبب حادث سيارة لكي يبني روايته» رجل في الظلام» وبريل يستلقي كل ليلة في سريره. كان يجب وضعه في هذا النسيج لكي يروي وهو من خلق شخصية أوين بريك وكلفه لقتل مؤلف رواية الحرب. لكن هل ستتوقف الحرب؟ لو لم أذهب الى بودابيست هل كنت سأتعرف بصورة مباشرة على من سيكون مؤسس ظاهرة كتاب الاحتلال، شرطي مترجم، ودليل سياح خليجيين الى أمكنة «خاصة»؟

وصلت العاصمة المجرية بودابيست ثم محطة قطاركيلتي Keleti الشرقية، وقد تكون أضخم محطات قلب أوروبا، حصلت على شقة على ضفة الدانوب الأزرق عن طريق محتال عراقي، هذا أول الغيث في المحطة. قلت مع نفسي عليك الان أن تنتقم من الحروب وخنادق الجرذان وتبدأ من جديد، لم يستوعب صاحب الشقة أنني نرويجي

أسمر لاختلاف الملامح، اعتقد إن الجواز مزور لكنه تحقق منه من دائرة للبوليس مختصة. تجاوزنا العقبة الثانية.

لا أعرف أحداً سوى رسالة من الشاعر المرحوم مشرق الغانم لصديق له هناك من أيام العمل السياسي، لكن الناس تغيرت بالتحولات الجديدة في الدول الاشتراكية ومن كان يسارياً لا يحلم إلا بالتغيير الجذري تحول الى سمسار ونصاب وأحد هؤلاء بعد أن تاب من الجماهير والاشتراكية والصراع الطبقي تحول الى سمسار بيوت ونصاب مترجم للسياح الخليجين وظهر مع بداية الاحتلال وأسس ظاهرة كتاب الاحتلال وأعلن حرباً على الجميع بعد أن كان لابداً طوال سنوات الدكتاتورية.

كنت أمشي لكي أصل الى محطة القطار كل يوم، وجدت فيها عرباً من عدة دول، ينامون في المحطة وتعرفت على أحدهم بلقاسم الجزائري، من أنظف الرجال الذين تصادف في حياتك، مدرس هارب، اقترحت عليه العيش معي في الشقة. عندما أغادر الشقة وأعود أجده يأكل الخبز والبصل والثلاجة مليئة بالطعام، يصلي كما لو يختفي في صلاته، أقرأ له قصيدة سعدي يوسف:

" نبي يقاسمني شقتي .يسكن الغرفة المستطيلة،

وكل صباح يشاركني قهوتي بالحليب وسر الليالي الطويلة"

لكنني عندما أصل الى هذا المقطع أختنق و أتوقف وأواصل:

" لكنه حين يحتد،

يرفض أن يرتدي غير برنسه الصوف".

أنظر عبر النافذة للدانوب الأزرق وجسور بودابيست العريقة، بلقاسم يصلي وينشج. في يوم آخر في المحطة تعرفت على تونسي بلا أوراق، لا اقامة ولا سكن يعرفه بلقاسم، أخذناه للشقة وقال لي صراحة إنه يعيش من سرقة المتاجر لكي لا يموت، في يوم آخر جاء ومعه فتاة عربية وأخذني الى غرفة النوم:

" هذه تائهة ولا مكان لها"

" كيف تعيش؟"

" أقدم مهنة في التاريخ".

قلت مع نفسي اكتملت المسبحة: انقلابي ولص وعاهرة و أنا الهارب ولا نحتاج سوى الى كاهن شيوعي متمرد ومطرود من الكنيسة والعائلة والبقالية والمقهى. ماذا سأخسر؟ على الأقل هناك دولة محترمة تخوض حرباً سياسية لأجلي كمواطن، سألته:

" عندها إقامة؟"

" لا، كلنا هنا معك بلا أوراق قانونية".

وفي حالة الكبسة أو الوشاية ستكون التهمة إيواء فارين أو ربما مجرمين، لا بأس المسيح كان يأكل مع جناة، وأول من أسس مدن الملجأ للفارين، تقنية لتهدئة نفسي أو خداعها ويمكن تبرير التضحية لأجل بلقاسم واللص لكن المشكلة مع الفتاة كيف يكون موقفي؟

في يوم آخر جاء بلقاسم ومعه شخص أفريقي من غانا، قدمه لي بلقاسم وهو يشهق من الضحك:

" أوغادو، مهرب ومزور جوازات".

مدهش، بالعودة فيما بعد الى اسم أوغادو ظهر أنه اسم غانا القديم وبلا شك هو مستعار وفكرت في أن جميع سكان شقة الغرائب يحملون أسماءً مستعارة، أنا الوحيد بوجهي الحقيقي في حفل تنكري، ثم من يؤكد أن هؤلاء ليسوا مطاردين بجرائم؟

لن يحصل لك أسوأ مما حصل، تمسك بحكمة الأجرب الذي قيل له: لا تاكل البصل» فقال:

" أنكس من هذا ما يصير".

عندما يذهب الاخرون» للشغل» نعقد بلقاسم و أنا مؤتمراً خاصاً لمناقشة أي ظروف طارئة قد تقع على أساس نحن الجناح السياسي

في الشقة ونقود بروليتاريا رثة، في كل الأحوال كان هو غير راض عن وجود البنت:

" لكن إلى أين تذهب؟."

يرد علي بحدة:

" تذهب الى جهنم"

" الشقة ثلاث غرف وصالون وتعمل كمدبرة منزل

وتوقفتْ عن الخروج وهي لا تضايق بشيء وقريباً سأسافر".

في يوم آخر وجدت أوغادو المهرب مع بلقاسم يخططون لجواز سفر مزور لبلقاسم والسفر من محطة القطار الى النمسا ثم المانيا. قرروا أن يكون اسمه في الجواز بيير وهو فرنسي سائح وبلقاسم يتكلم الفرنسية بطلاقة، لكنه التفت إلي ضاحكاً:

" سي حمزة من يصدق أنني بيير وفرنسي وسائح؟"

كان يجب تأثيث بلقاسم بملابس جديدة وحذاء رياضي لكي يقترب من مظهر سائح فرنسي وليس مظهر المتشرد. في اليوم الأخير لسفره ذهبنا جميعاً الى محطة القطار لوداعه، المهرب والفتاة واللص و أنا المنفي ولا ينقصنا غير بابا الفاتيكان ليكتمل المشهد السريالي، وضعت

له للتمويه أمام البوليس وردة حمراء في قميصه، تحرك القطاروهو يلوح ضاحكاً من خلف الزجاج. كنت أعرف لماذا يضحك: من نوعية المودعين. قبل ذلك أعطاني ٣٠٠ دولارتسلم للمهرب في حال وصوله ألمانيا، لكنه عبرالأراضي النمساوية وقُبض عليه في ألمانيا بعد أن اتصل وسلمت المبلغ. في رسالة مفصلة منه للترويج مع رقم هاتف يرجو الاتصال حالاً لأنه لا يملك حتى ثمن رسالة أخرى:

" كيف تعيش الآن؟"

جر نفساً عميقاً في الهاتف وقال واعرف ان مخ بلقاسم صلب لكنه نظيف:

" هل يخطر لك أنني أعيش الآن تحت رحمة كنيسة ولا أحد غير الله و أنت؟"

لأني أعرفه جيداً شعرت بعمق المفارقة. قلت لاوغادو المهرب:

" اسمع سأسافر بعد اسبوع، حاول أن تجد حلاً للفتاة لانها عاشت معنا، ومن الصعب عليها حياة مختلفة"

" ما عندها مال وهي طلبت مساعدتها مرة في جواز مزور".

" عاملتك بلطف كصديق، وكنت أستطيع ألا أعطيك مبلغ الأمانة، اعثر لها على حل وسأعطيك".

تم في أيام إعداد الجواز، وثانية للمحطة، عندما صفر القطار كان وجهها عبر الزجاج ينضح بصفاء غريب ووداعة مشرقة.

عدت للشقة مع المهرب وتمكنت هي من دخول ألمانيا بلا مشاكل. هكذا انتهى الصيف المجري وبدأ هبوط الثلج. في مطار زويريخ في سويسرا عبور ترانسيت جلست أفكر في كل غرائب وصدف هذه الحياة وانبثقت فجأة فكرة كتابة رواية، وعندما وصلت النرويج جلست أكتب رواية عن هذا الخليط من البشر والمصائر وكانت:» سنوات الحريق " عام ٢٠٠٠ عن ذلك الصيف وعن حريق عراقي قادم.

٢٣

«لقطاء ليلة الغزو»

«الأوغاد يسودون، أتعلم لماذا؟ لأنهم أشدّ نهما منا، لأنهم يعرفون ماذا يُريدون، لأنهم يؤمنون بالحياة أكثر منا.» - بول أوستر.

خلال الاعداد لفصل» لقطاء ليلة الغزو" عن الكتاب أو الكتبة الذين أعلنوا حرباً شرسة دفاعاً عن مشروع الاحتلال، قبل وبعد الغزو، ونحن لا نوثق مع ان التوثيق خاصية شعوب العالم، وجدت ان كاتباً - هو شرطي مترجم هنغاري عراقي الأصل - طالب بإعدامي في ٦٠ مقالة خلال ٢٠ سنة ، نهاراً جهاراً، ولم يلفت أنظار أحد كما لو أنه يكتب في غرفة إعدام ومرة واحدة طالب باعدام الروائي الشاب عبد اللطيف الحرز وكل من وقف ضد الاحتلال والنظام كما طالب الولايات المتحدة باستعمال العصا مع العراقيين لانهم لا يتحركون بغيرها والديمقراطية» المطاطية « حسب وصفه لا تنفع بل» الصلبة» حسب وصفه ايضاً، أي التعذيب والقتل والاذلال وكتب حرفيا يقول إن العراقيين شعب وسخ يحب الوساخة وتحركه السياط وهو ما

لم يقله نازي عن شعبه. السبب اننا نقف ضد مشروع» التحرير"، مع ان هذا الكائن عاش في بودابيست في قلب أوروبا قرابة نصف قرن بلا عبارة واحدة عن النظام السابق، لكن العرق دساس ومن شب على شيء، شاب عليه ولا تنفع كل تجارب وعلوم وآداب وتحولات العصور في تغيير طبع البدن غير الكفن، مع أن دور المثقف في ساعة منعطف هو الاستباق والتحذير من مشروع خراب وليس في وسعه إيقاف حرب دون أن يقف لا مع الدكتاتورية ولا مع الاحتلال بل دور كشاف دروب المستقبل.

عندما وقع» التحرير « كتب هو نفسه، مهدي قاسم، مقالات موثقة باليوم والمكان يقول فيها:»الخطأ الفادح الذي ارتكبته أمريكا انها أعطت الديمقراطية للشعب العراقي وهو شعب لا يستحق الديمقراطية، بل شعب وسخ لا يحب النظافة لا يتحرك إلا بالسياط». حرفياً.

استعمل كلمة» أعطت» كما لو أن الديمقراطية زجاجة ويسكي أو علبة كافيار أو هدية مع انها شبكة قيم ومبادئ وتراث وثقافة وهوية وطنية والخ. هؤلاء الحثالات تم اعدادهم من قبل المخابرات الامريكية في دورات اعلامية في بودابيست وتل أبيب وواشنطن للترويج للاحتلال. تأخر الوقت كثيراً على اعادة النظر في المفاهيم كمفهوم الكاتب والمثقف بصورة خاصة كما تأخر الوقت على ضرورة

التوثيق لكي لا تتكرر الكوارث.

في فرنسا حتى اليوم تناقش قضية« المتعاونين» مع الاحتلال النازي وصدر« الكتاب الأسود» عن هؤلاء وفي النرويج كذلك هو موضوع مفتوح لخلق تقاليد وطنية ومصدات وقائية للأجيال على أن الخيانة ليست وجهة نظر، وتحسباً للمستقبل، وتم إعدام المتعاونين مع الاحتلال وكاد الروائي النرويجي كنوت همسون حامل نوبل أن يقف أمام مفرزة إعدام لمقابلته هتلر خلال غزو النرويج، وخلال عامين من المحاكمة ونظراً لحملة عالمية من كبار كتاب العالم طالبت بالر أفة به لأنه تلقى معلومات خاطئة عن النازية ولم تتوفر وقتها وسائل اعلام غير الراديو والصحف، تم الحكم عليه بغرامة مالية مهينة.

مخلوقات ليلة الغزو هم اليوم في قلب مؤسسات الاعلام، في مقدمة المشهد الثقافي والسياسي بعد أن غيروا المعاطف وليس المواقف للاستثمار بالدم قبل وبعد الاحتلال، إنهم واثقون أن أحداً لا يوثق ويمكنهم في أي وقت البداية من جديد، وقاموا بحذف الارشيف لكننا كنا نوثق دائماً. هناك ٣ مجاميع تم اعدادها قبل الاحتلال:

الاولى: قضاة في الخارج تم تدريبهم في واشنطن على كيفية محاكمة رموز النظام وصدام حسين في حال القبض عليه، والدرس الأهم:

تعاملوا مع صدام كمجرم بلا حديث في السياسة وهو ما حدث وأضاع علينا فرصة معرفة الأسرار العميقة.

هؤلاء لم يظهروا في واجهة محاكمة صدام لكنهم في خلفية المشهد ولجان التحقيق ومستشارين وفي محكمة التمييز وأعرف شخصياً واحداً منهم.

الثانية: تم تدريب نكرات وحثالات في تل أبيب وبودابيست وواشنطن في دورات اعلامية قبل الغزو واهم الدروس: الشراسة والكلبية والانقضاض على الخصم كي ينسحب من الاستنكاف. كمثال قام أحد هؤلاء من حزب المؤتمر في برنامج« الاتجاه المعاكس» بضرب الدكتور المفكر وميض نظمي والبصاق في وجهه وهو ابرز ممثل لهذا التيار الوقح مع سمسار وقواد وشرطي بودابيست الذي كان مختبئا ٣٣ سنة وظهر بعد الاحتلال بمسدسين كنموذج علي الوردي الشقاوة الذي يخرج بعد هروب المجرم ويحمل مسدسين ويسأل عنه، هو شرطي هنغاري بقسم الترجمة ومن أسوأ من كتب باللغة العربية لأن القارئ يحتاج الى كمامات و اقية من الجيف لكي يقرأ وهو يقول غداً عكس اليوم.

الثالثة: قوات من مأجورين تم تدريبهم في دول أوروبا الشرقية وهؤلاء كانوا مع قوات الغزو وشاهدنا أول ظهور لهم في الناصرية.

كيف اختفت تلك الحقائق؟ هؤلاء كتاب للايجار أطلق عليهم ادوارد سعيد قبل الاحتلال وصف:»أحذية المارينز». كل عملاء العالم يختفون خجلاً أو خوفاً بعد الاحتلال إلا عملاء العراق هم الأكثر صفاقةً وفي كل مرحلة يظهرون بقناع جديد.

٢٤

ثجيل راعي براري لا يعرف القراءة ولا الكتابة وليس ناقداً أدبياً مثل أوغست بريل ولا يعرف معنى الموت بلا شهود ولا طقوس ولا خلق عوالم موازية لكنه عندما شعر بقرب الأجل قال لزوجته:

«أنا ذاهب للدغل لكي أموت، إياك أن تخبري أحداً".

ارتدى أفضل ملابسة وبمشقة استحم، قال لها:

"هذا الخنجر لك".

كل ما يملك وغادر المنزل بعصاه التي ما فارقته يوماً. ذاهب للموت كما لو انه الى حفل وعلى موعد، تابعته زوجته في الشارع في المساء حتى اختفي. ثجيل لا يريد أن يراه أحد وهو يحتضر، الموت بلا مشهدية ولا استعراض. من الغريب أن الرو ائي ميلان كونديرا تحدث عن هذا النوع من الموت بلا شهود وهو يتحدث عن الرو ائي الفرنسي فرديناد سيلين مؤلف رو اية «رحلة في أقاصى الليل» التي هزت اللغة الفرنسية، بلغة سيلين العفوية الطليقة، رغم أن ثلاثة من أدباء فرنسا الكبار لم يتركوا في سيلين شيئاً لم يلعنوه وهم سارتر وسيمون دي بوفوار وكامو، وهؤلاء اعترفوا بعد وفاته بوقوعهم تحت سحر

سيلين، كاموكتب روايته الشهيرة» الغريب» بلغة سيلين، بلا حذلقة ولا تقعر، وسارتر اعترف شخصياً إنه خلال كتابة روايته» الغثيان» كان تحت سلطة لغة سيلين. وكذلك سيمون دي بوفوار.

ثجيل ابن براري لا يفلسف الحياة بل يعيشها، ولا يسأل عن معنى الموت بل يضرب له موعداً، لا يخافه بل يريد أن يموت في عزلة الذئب، وهو يلعق جروحه بمغارة، ومن تصل روحه الوريده يعض على جرحه وما يصيح.

ثجيل هو الطبيعة الصافية لا يخاف الموت بل يخاف الذل وفي ذلك المساء تحت قمر صيفي حي، دخل الدغل المعتم ومشى بقدميه نحو قدره، دون أن يعرف الموت بلا استعراض ولا حضوروهو لا يقرأ، وعندما قالت له فاطمة زوجته قبل الخروج الأخير:

"لنذهب الى المستشفى، لا تتركني وحدي".

"لا، فاطمة، أعرف النهاية لكنك كسرت ظهري لأنك ستبقين وحيدة".

من غير ثجيل الذي عاش في عزلة البراري من يسمع

صوته الداخلي العميق؟ هؤلاء في قلب عزلتهم يسمعون صوت الجسد ونداءات القلب خارج الضجيج؟ كل صباح تذهب فاطمة

للحقل بالماء والطعام، الوقت صيف والأزهار تفتحت وصخب العصافير، وقت يتناقض مع موت وشيك، وفي كل يوم تجده أسوأ من السابق، حتى تعفن. قالت فيما بعد:

" خفت عليه من النسوروالضباع، رائحته لا تحتمل".

عندما أقارن بين هاري في رو اية ثلوج كليمنجاروللرو ائي همنغواي الذي يصاب برحلة بغرغرينا مميتة،

ويهذي عن ماضيه ويشرب بإفراط أجد أن ثجيل أعظم، هاري يستسلم هو الآخر للموت حتى لا ينتظر طائرة الانقاذ لكنه يحكي بصدق وفي واحدة من هذياناته يقول لزوجته أنا لا أحبك وتصاب بالذعر، لكن ثجيل قال لها:

" كسرت ظهري".

كان هاري المستلقي تحت شجرة ميموزا فوق سرير من الحبال فوق قمة جبل كليمنجارو الأفريقي يرنو الى السهل في الأسفل: السهل ضاج بالحياة. متوهج. طيوركاسرة. ظلال متحركة. عشب حي.كل ما يتنافر مع رجل يموت. هاري يتكلم مع زوجته.

سلطة اللغة في مواجهة سلطة الموت. هو الآخر يعرف كل شيء انتهى ولا ينتظر أحداً. ثجيل أعزل ووحيد في عتمة الدغل لا يتكلم مع

أحد، هو من قبل لا يتكلم مع أحد إلا في حالات نادرة، سيد الغابة والبراري، مروره في المكان يعطره من الدنس، لكن فاطمة قالت لي بعد سنوات:

" مرة واحدة سمعته في الفجر يتكلم، واختبأت في الدغل وكان يردد مع نفسه:»أحّاه وجعهن حيل كسرات الأيام".

في العتمة الفجرية هو في صراع مع موت لا يأتي. في عزلة باردة وموت متردد. كيف قضى ثجيل أيامه الأخيرة في الدغل في الليل، وهو ينتظر الموت الذي لا يأتي؟ كيف كان يفكر في تلك العتمة الباردة وعزلة الذئب؟ من أي لحم ودم مصنوع هذا الرجل الأسطوري في زمن كانت الشجاعة تعادل حياة حتى في مواجهة موت يقترب؟

كنا نخاف نحن الصغار من ثجيل ومن خنجره وفالة صيد السمك، نهرب عندما يحضر وفي كل مرة درس مخيف، لكني عندما كبرت عرفت أنه حي في داخلي وترك بصمة حادة، و انبثق بلا توقع في السيرة الذاتية الروائية: «الأعزل"..

كان يتفسخ حياً في المرة الأخيرة التي زارته فيها فاطمة، لم يأت الموت وعندما يأتي سيرى عينيه في عتمة الدغل. لكنها لم تتحمل في ظهيرة دافئة ومشرقة، فجاءت هلعة لتقول الحقيقة:

" تعالوا، ثجيل يتعفن".

هرع الجميع نحو تلك البقعة المنزوية. لن أنسى أنا الصبي ما حييت نظرة العتاب المحرقة نحو زوجته وكانت كافية لجعلها تتداعى. المرة الأخيرة التي زرتها فيها وكانت تعيش وحيدة قالت لي:

" لم أخنه يوماً إلا تلك المرة يوم فضحت سره ونظرة عتابه القاسية لم تغب أبداً".

مرة واحدة فقط باحت بسر موته؟ زمن سنقول عنه يوماً: نحن سعداء لأننا عشنا في زمن يسمى زمن ثجيل. زمن البراري قبل موت الأشجار. كيف قطعت المسافات بين البراري والمنافي وشكسبير وهمنغواي وسارتر ودولة ما بعد الحداثة والعولمة وعري الشوارع والليبرالية المتطرفة في الحقوق الفردية والرواية الجديدة وجسور الدانوب الأزرق وقطارات وصالات و أندية أوروبا، لتعود في النهاية الى زمن ثجيل راعي البراري؟

كيف اكتشفت ان ميلان كونديرا وهو يتحدث عن الموت بلا شهود ولا استعراض هو موت ورقي وثجيل مارسه وهو لا يقرأ ولا يكتب؟

عندما شعر بدنو الأجل ذهب الى الحقل كي يموت في عزلة، عاش أياماً في الدغل في انتظار موت لا يأتي. لم يكن يخاف من الموت بل

من الضعف. في قلب الظلام كان يترقب الموت. موت بلا شهود ولا استعراض كموت اعشاب او زهور البراري. كيف انتهيت بعد طواف العالم الى صومعة ثجيل وكوخه في الغابة وليالي الضباع، والصلاة النقية في الغابة عند الدخول والخروج منها؟ كيف عندما تهاوى كثيرون أمام إغواء الغرب، عدت أنت للجذور ليس بدافع الحنين وحده، بل بدافع الاكتشاف وغواية النقاء البري؟ لم يكن ثجيل شخصاً فحسب، كان زمناً ومجتمعاً ومبادئ حياة، حيث الطبيعة هي الأصل والثقافة ثانوية، ليس خيار الموت بلا مشهدية هو كل ثجيل، ولا يُختزل به بل هو كل الزمن المنقرض، يوم كان الحلف بالزاد والماء والملح هو القانون، يوم كانت المصافحة وعد وفاء والضحكة قسماً، ورغيف الخبز المتبادل عهد شرف ووثيقة شرف. يوم كانت صحون الطعام تدور في المساء للمحتاجين تحت جنح الظلام للعفة، يوم كان البيرق على حائط هو صمام أمان ودستوراً، يوم كان اللص يبكي من السرقة ولعنة العوز.

في زمن كانت للصوص قواعد شرف ومبادئ، لا تسرق جاراً ولا مريضاً ولا أرملة ولا فقيراً ولا يتيماً ولا غريباً، ولم نكن نعرف أننا على موعد مع لصوص سرقوا الأخضر واليابس وتركوا الناس فريسة للتيه والضياع وفقدان الرغبة في الحياة.

كان زمن ثجيل زمن مرجعية تتداخل فيها الطبيعة مع العرف

تداخل سبيكة الذهب،لم يكن سلطة ولا يفرق بين ملك ورئيس، لا بين جمهورية ولا ملكية، لكنه يعرف موسم الأمطاروزهور الربيع، والغيوم البيض علامة الخريف، وظلال شهر أيلول الباردة علامة نهاية الصيف، وسخونة تراب شهر آب وبزوغ نجمة الفجر.

لماذا أتذكرثجيل في زمن الموت العاري، وخيبة البشر بنظام العالم، زمن صارت فيه الشطارة ثقافة والحيلة ذكاءً والخيانة وجهة نظر؟

فيروز ليست مغنية فحسب، بل هي مؤرخ لزمن الحارة وشادي والثلج ومواسم العنب والعصافيروفو انيس الشوارع وشايف البحر شو كبيروقهوة الصباح وطير الوروار، وجايبلي سلام من عصفور ينفض جناحه عند شباك الدارو أين ذهب شادي الذي كان يأتي من الأحراش ونلعب أنا وياه؟

لا أحد يعرف أين راح، في جبهة النصرة أم في قوارب الموت أم صار زعيماً في عصابة تشليح؟ من يوم موت ثجيل واختفاء شادي، اختفى الجانب النظيف، ونحن ننطرعلى الطريق،ماذا ننطر؟ لا أحد يخرج من هذه الصحراء الميتة، صحراء الداخل والخارج، لا خيارلنا أمام جنون العالم غير الجلوس و انتظار أن يأتي أحد ما من مكان ما، الأغنية الأخيرة التي سمعها صموئيل بيكيت في سريره الأخيروطلب من الفريق الطبي مغادرة الغرفة. لا أحد جاء ولا أحد ذهب.

٢٥

" كيف استطاع كافكا تحويل المكتب، هذه المادة الرمادية غير الشعرية الى روايات مذهلة؟ نجد الجواب في رسالة كتبها الى ميلينا "المكتب ليس مؤسسة غبية، انه أقرب الى عالم الغرابة منه الى الغباء" - ميلان كونديرا.

كما تنعكس السلطة في المناطق الصغيرة كمزابل الأطفال وحجم أقفال الأبواب وارتفاع وانخفاض جدران المنازل وفي النفايات، وفي مقاعد الدراسة وحقائب التلاميذ وطوابير المراجعين، وفي الحدائق العامة والمشي المطمئن الواثق أو المرتبك للناس لأن

المشي موسيقى داخلية يعكس نظام الأمان العام،

كذلك توجد السلطة في المكتب.

من ينظر الى مكتب مسؤول فخم هذه الأيام، وفوقه هواتف متعددة وسجلات، وخلفه صورة لسلطة رمزية دينية أو سياسية ونادراً ما تكون لوحة فنية، يشعر حالاً أنه أمام سلطة أباطرة بكل ما تحمل من عقاب وثواب ورمزية.

قبل أن يصل المواطن الى مكتب المدير أو المسؤول،

يكون عليه المرور بشبكة متاهة من صور ولوحات

وشعارات وحراس وممرات وتعليمات واذا وصل يكون الجزء الجوهري من طاقته قد أُستُهلك وتم انتزاع الكثير من حقوقه ومن آدميته.

في كل مؤسسات العالم لا توجد مكاتب بهذه الضخامة التي تعكس عقدة الشعور بالدونية أكثر من دور وظيفي وخاصة المنضدة التي يجلس خلفها المسؤول أو المدير أو الموظف في مؤسسة خدمية أو أمنية وحتى في مؤسسات المجتمع المدني ومقرات الأحزاب:

إفراط واضح في فخامة المكتب الى مستوى البشاعة. المكتب ليس أداة جامدة بل سلطة وبتعبير ميلان كونديرا إن كافكا أول من اكتشف في هذه المادة الرمادية الجافة طاقة شعرية جمالية وفجر المخفي من السلطة المختفية فيها على نحو مراوغ لكنه واضح.

تعتمد سلطة المكتب اضافة الى النظام البوليسي المرعب في الممرات المؤدية اليه من رموز وعلامات وشعارات، على عناصر واضحة للداخل:

مكتب فخم عريض. نظام هواتف متصل بمراكز ومؤسسات.

الأرشيف. في خلفية المكتب على الجدار صورة لرمز مقدس قد يكون وجوده معلقاً للتغطية على قبح ووظيفة المكتب أو للردع والتخفي.

يقبع خلف المكتب شخص تشعر أن حضوره في هذا المكان منسجماً مع الديكور الغامض وبصرف النظر عن طول وقصر وبدانة أو نحافة هذا الكائن، لكنه يعكس سلطة رمزية بأدوات واضحة، ولو وضعت هذا الشخص خلف عربة نفط أو عربة شلغم بلا علامات السلطة المذكورة، لفقد كل سلطته وقيمته وقوته التي لا يستمدها من شخصيته أو كفاءته بل من السلطة التي زرعته. يلعب الهاتف دوراً في تضخيم صورته ولو كان قزماً وبتلاعب ممسرح بالهاتف يشعر المواطن أنه في مواجهة سلطة أكبر مما يتخيل.

مع الهاتف والمكتب الفخم والرموز هناك الارشيف،

وفي كثير من المؤسسات اليوم يلعب الأرشيف دور ملائكة الكتفين في تسجيل الحسنات والمساوئ بعد أن تمت سرقة وظيفة الرب في المر اقبة والعقاب وصارت وظيفة عادية للمؤسسة من خلال شبكة الاتباع والبصاصين والمر اقبين واذا رفع المسؤول سجلاً مؤرشفاُ في وجه مواطن على المواطن أن يصدق أن حياته في الأرشيف وليست فيه هو، وكل ما في الأمر أن نسخته البشرية المتجولة والحيّة ليست هي الحقيقية لأن هذه موجودة في الأرشيف، واذا كان يحتاج الى

معلومات عن حياته عليه البحث عنها هنا وليس في ذاته، وكيف تكون له ذاته في نظام المؤسسة بالمعنى الواسع وفي نظام الأرشيف وأمام هيبة مكتب بهذه الفخامة؟

قال لي صديق مر بنظام المتاهة هذا في الممرات المؤدية لمقابلة مسؤول أو مدير في مؤسسة إنه وصل منهكاً الى المكتب الذي تخيله كديناصور جاثم وخلفه كائن مسخ وعند الاقتراب لمصافحته خارج التعليمات، قرأ في غلاف كتاب مقلوب على المكتب هذا العنوان: فقه التأوهات لرجال الدين".

تذكرتُ حالاً رواية كافكا المحاكمة عندما أحضروا جوزيف. ك. الى محاكمة بتهمة لا يعرف عنها شيئا لكنه قرأ على مكتب القضاة غلاف كتاب عن الحياة الجنسية في مفارقة بين دور القاضي وبين الكتاب. خطر أن أسأل نفسي: ماذا سيحدث لو كان كافكا عراقياً؟ نحن في أكثر من حرب سرية وفي ظلام دائم ولا تنفع رصاصة أوين بريك لقتل مؤلف رواية الحرب. سواء سقط البرجان أم لا ، وقع غزو العراق أم لا في رواية« رجل في الظلام» لكن اللعنة حلّلت بالجميع، ضحايا وجلادين، ولسنوات قادمة.

«ما من سلطة بلا أرشيف،والسيطرة على الارشيف سيطرة على الذاكرة».* جاك ديريدا، حمى الارشيف الفرويدي.

صحيح ان العراقي يكره رجال الاجهزة الأمنية في نظم الحكم لكنه هو نفسه يقوم بدور رجل بوليس وتعقب أكثر مما يقوم به رجال التحر في روايات اجاثا كريستي. هو يؤرشف كل شيء للمحيطين به ويعرف، في ارشيفه السري، علامات ليلة الامس في بيت جاره، ويلخص الامر بعبارة « اليوم وجهك مورد فلان؟" عندما يلتقيه في الصباح في الشارع.

يعرف بدقة أسباب إجهاض الجارات، ولا يعرف سبب اجهاض الحرية والتنمية والعدالة والمستقبل. غالبية الناس لا تعرف القواعد العسكرية العلنية والسرية في العراق الـ ١٢ قاعدة، ولا مكاتب المخابرات والقوات الخاصة الاجنبية المموهة لكن هؤلاء يعرفون بدقة مجهرية باليوم والساعة اخر زجاجة خمر كبست على قلب سكران في خرابة واخر مرة تزحلق فيها في بركة مطر وغير ذلك الكثير من تفاصيل تافهة لذاكرة محشوة بالعطب الذي يفصل الانسان عن نفسه وحاضره وتاريخه العام والخاص، أي اهمال كل ما يصنع مصيره وسعادته وأمنه.

بما ان نظام الارشيف السري، حسب جاك ديريدا في « حمى الارشيف الفرويدي» هو من اختصاص الملائكة ومن واجبات الرب، لكن البشر ونظم الحكم سرقت وظيفة الرب في الارشفة وتحولت مؤسسات الدولة الى خزائن حفظ تسجل كل شيء، الصالح

والطالح، من مراكز البوليس الى مكاتب الطيران، ومن الفنادق الى مكاتب المخابرات وتحولت عيادات الاطباء الى مراكز استشارية لاجهزة الرقابة. إذا قال لك موظف أمني أبله أو مسؤول حزبي إن ملفك عندي، فعليك أن تسلم بأن حياتك وذاكرتك وماضيك وحاضرك ليس ما تعيشه أنت، بل ما هو مكتوب في ملف بارد في خزانة، وهنا تكمن عبقرية كافكا في اكتشاف السلطة في الأرشيف وفي الملفات الجامدة أكثر ما يعرف الانسان عن نفسه. حسب الفقهاء الارشفة هي من اختصاص الملائكة الذين قال بعضهم ان عددهم عشرة يتناوبون على الحراسة من الفجر الى العصر، وبعضهم قال إن عددهم لا يحصى، وهناك « الكرام الكاتبون» على الكتفين، واحد على اليمين يسجل صالح الاعمال واخر على اليسار يسجل السيئات. اذا اضفنا الى ملائكة السماء مؤسسات النظام نفسه، والاجهزة السرية عبر الحقب المتتالية، الى مصيبة المسؤول الحزبي في كل الاحزاب الاكثر قسوة من الملائكة التي يظل باب التوبة مفتوحا حتى وقرقرة الموت في عنقه، فالمسؤول الحزبي لا يقنع بالنقد الذاتي احيانا بل بالشنق وهو يتصرف - حتى في المنافي - كمسؤول عن رعيته سنجد ان المواطن تحت المراقبة المستمرة التي لا تنقطع حتى في النوم، من غير الاقمار الصناعية ووكالات التجسس والمراقبة على المكالمات والرسائل، وكوابيس هذه القوى تلاحقه في النوم وهي مساحة صغيرة للحياة الخاصة، والتلصص الليلي لرجال

الامن ورجال الشيخ ورجال زعيم الحزب عبر النو افذ والحيطان، هو سلوك تقليدي في الارشيف الاجتماعي. نظرا لضخامة وتعدد الجهاز الرقابي الذي يجثم على صدره من كل الجهات، يتحول هو نفسه الى رقيب ومتلصص على نفسه، ويفرض رقابة صارمة على لسانه، أولاً، لأن اللسان حصان، ان صنت، صانك، وان فلت وجدت نفسك في قبو عاريا، أو في شاحنة نقل نفايات كتب عليها: كيس بصل تالف وبعد أن يكبح لسانه، يلتفت الى ذاكرته، ويحذرها كل لحظة من أي صورة مشرقة قديمة قد تبزغ، فجأة، تخالف نظم السلطة ونظم المجتمع، وعليه ان يجتر خياله وذكرياته في غرفة مغلقة ويتأكد من آذان الحيطان وآذان الاطفال والجيران ومن نفسه أيضاً.

لكن هذا لا يكفي عليه ان يخشى من اللغة، في الكلام والكتابة، ويقوم بدور الرقيب يحذف ما لا يرضي النظام العام، السلطة والمجتمع، ويضيف ما يرضيه، أي الغاء نفسه، وجهازه الرقابي يمتد الى الاحلام التي عليه ان يجترها بسرية دون الاجهار، الى الخيال الذي لا يجب ان يشطح خارج الو اقع القائم، كما ان عليه مر اقبة غر ائزه وبصورة خاصة اللذائذ الفردية، واللذائذية تهمة أبو العلاء المعري من قبل رجال الدين، لأن اللذة تتعارض مع السلطة حسب رولان بارت، اللذة لا تهدف الا الى نفسها ولا زمنية، والسلطة امتلاك وغرض وهدف وكل الازمنة، وباختصار لم يعد بحاجة الى جهاز رقابي سلطوي

أو اجتماعي، لأنه هو نفسه صار يتخوزق بمحض ارادته.ليس ذلك وحده، فبعد ان تم زرع مؤسسات رقابية فيه بعنوان معاييرواخلاق وتقاليد، يصبح رقيباً على الاسرة وعلى الاصدقاء والجيران عن طريق الحكم والنصائح ويؤدي دور أرنبة الآخرين وترويضهم، وتعليمهم قواعد النجاة والعيش ولبس الاقنعة، ولم تعد، هنا، السلطة جيشاً وشرطةً بل عقلية.

بما أنه محكوم بكل هذا العدد الهائل من « المؤرخين والرقباء» اليوميين، من سواق الحافلات الى صالونات الحلاقة، من حدائقية الممرات الحكومية الى عسس المقابر، من غيررقابة الهو اتف وبعض الساعات اليدوية وشاشات تلفزة مزودة بعدسات سرية بل حتى الحيطان لها آذان، فلقد تحول هو نفسه الى مؤرشف لصالحه هو دون أي غرض، بعد ان تم زرع» رجل التحري» في أعماقه. هو يعرف عن طريق مساعديه في المنزل حالات الجماع عند الجيران لكنه لا يعرف ولا يريد أن يعرف أن مستقبل بلده يقف على حافة هاوية، و يعرف مواعيد العشاق السرية في الخر ائب وخلف الحيطان القديمة او الغابات، بل ويعرف جدول اعمال جاره في» العدل بين الزوجات“، كما يعرف عدد النوبات القلبية لجاره الاول والسابع، أكثر مما يعرف الطبيب الخاص، وعلى اطلاع تام بكل تحولاته السياسية الحقيقية والاضطرارية وعلى در اية تامة بآلام البواسير والاقتصاد

المنزلي وعدد النوبات الغرامية القديمة والجديدة والمحتملة، وكيف يغش في اللبن والمواعيد والديون والاناشيد والهتافات والانتخابات، وهو ليس مجرد ارشيف كيفي رغبي بل هو احكام قاطعة نهائية أو» معتقلات نفسية“، أي كل ما لا علاقة له به.

على العكس من ذلك هو غير معني بقضايا كبرى تصنع مصيره، كما ان هذا الارشيف التافه وحوادثه العادية التي تحدث في كل مكان وزمان، تتحول الى اسلحة ومعارات، في حين تكبس السلطة على الجميع ويعيشون كل انواع الذل بصمت وجبن. لقد عشنا مع شعوب في عمارات من مدخل واحد وفي شقق مشتركة ولعشرات السنوات دون أن يهتم أحد بخصوصيات الاخر، لا في عقائده ولا في حياته الخاصة.

لكن هذه التفاصيل التي من اختصاص الرب، انتقلت الى المواطن حتى صار مركزوثائق متجول، وسواء كان يدري ام لا يدري، فهو الاخر خاضع لنظام المر اقبة الصارم، من الجيران والاصدقاء ورجال الامن والملائكة والمسؤول الامني والحزبي في المنطقة،

وشيخ العشيرة وصاحب المقهى المجاورة، ومن مدلك الحمام القريب وباعة عربات النفط الى مختار المحلة.

مع كل الابتلاءات الاخرى، مطلوب منه أن يكون» عاقلاً» و «

متوازناً"، و« منطقياً» في احكامه وهو عبارة عن شاحنة نفايات من المعلومات الحقيقية والملفقة والمرتجلة، ومن أوامر النهي والزجر.

لكن هذا الكائن الذي صار مؤسسة رقابية الذي يؤرشف لكل شيء بعد ان حولته السلطة والمجتمع الى مؤسسة متنقلة، وحافظ قوانينها ويعرف كل الاسرار، كما يدعي، عن اي رجل وامراة، من مرحلة التخصيب الى الانجاب وبعدها، لا يعرف شيئاً عن كل ما يتعلق بمصيره هو ومصير من يؤرشف لهم.

قد يستيقظ يوما، كما حصل في حرب الكويت، ليسمع على الفطور ان جيش بلاده عبر الحدود ودخل في حرب وفي يوم ما يجد نفسه مرميا على الحدود من سرير النوم بحجة ولادة خاطئة في العراق قبل مئة عام، أويتحول من تاجر كبير في الشورجة ـ كما حدث عام ١٩٨٠ ـ الى مطرود على الحدود بلا نعال ولا بطانية ولا نقود، اويذهب للعمل في الصباح، معطراً، يدندن باغنية من اشواق قديمة كبست عليه في الطريق، ليجد اعلانا على باب الدائرة يقول انه وعدد من الزملاء صاروا جنوداً حسب قرار رئاسي صدر منتصف الليل، وان دوره - الدور جوهري في حفظ توازن الفرد - قد تبدل ومعه مصيره وحياته وحياة عائلته، وعليه تنفيذ كل ذلك لأن هذا « التحول» والمنعطف في حياته ليس من شأنه وهو أمر يخص النظام والقوانين.

هذا المواطن الذي كان يؤرشف كل شيء بحكم العادة او الفضول او التحول البطيء الى مؤسسة، لا يؤرشف ، مثلاً، عن ميزانية الدولة ولا عن عدد الجيوش السرية والعلنية التي دخلت البلد، بعناوين مختلفة، ولا يعرف ان القنابل التي تسقط على رؤوس «الاعداء» بحجة حمايته منهم هي قنابل قديمة مستهلكة يراد التخلص منها في وطن صار مكب نفايات المواد السامة، بل لا يؤرشف ولا يعرف هل ان الانتخابات التي شارك فيها بالاصبع البنفسجي كانت حقيقية، أم كانت تدار، عملياً، من خلال حواسيب سرية خارج عقله وخارج أرشيفه المخصص للجيران والدجاج والعشاق والمواعيد الغرامية الليلية المختلسة من حراس النوايا والعواطف؟ ارشيفه السري لا يشمل الدخل القومي ولا مصروفات قادة البلد ولا كيف تصنع القوانين والدساتير ولا يسأل في موضوع الحرب والسلام، ولا في نوع النظام السياسي القادم، وإذا كان يملك قدرة زرقاء اليمامة في رصد عشاق متسللين الى خرابة، فهو لا يملك بل غير معني برصد عشرات الجيوش الاجنبية ونصف او أكثر مخابرات العالم وهي تتسلل بالتدريج الى العراق وهو مشغول بارشيفه السري في مكاتب مموهة. اذا كان يعرف تورد خدود جاره من ليلة الامس، فهو لا يعرف تورم وجوه سجناء البلد كما لو ان هؤلاء في عيادة تجميل لا في مركز تعذيب.

السلطة تزرع نفسها في نفوس ضحاياها - السلطة بالمعنى الواسع بما في ذلك المجتمع - وتدمج الانسان بالنظام كأداة وليس فاعلية، وقد تطلب منه يوما، وقد حدث هذا فعلا منتصف الثمانينات، مطاردة الكلاب السائبة او قتلها مقابل مكافأة مالية للاذلال بذريعة الصحة العامة. الغريب ان ميلان كونديرا الروائي التشيكي يذكر ان مطاردة الكلاب حدثت في بلاده في زمن النظام الشيوعي ومكافأة أيضاً للهدف نفسه، الاذلال والمشاغلة، ومن دون ان يدري يتحول هو الى سلطة متنقلة، يحمل قوانينها كما يحمل بدوي في خرجه عقربا قاتلاً.

ربما يعرف بالدقة جدول العدل بين زوجات الجيران،

لكنه لا يعرف مصير مليارات الدولارات المسروقة منه، يعرف بدقة مجهرية متى تبيض دجاجة الجيران،

لكنه لا يعرف متى تنتهي أوهامه وتلصصه ورقابته وأحلامه ويتحول الى مواطن حقيقي بدل هذه الخرقة الماشية في شوارع ضاجة بالأصوات ولا أحد في الشارع غير الهياكل. كل هذه السلط عليه من داخله وخارجه التي تفكر له بالخفاء وتدفعه للتصرف دون وعي كبنية عقلية سرية ومصدق أنه حر ويفكر لان الحبل الذي في رقبته طويلاً.

٢٦

«الظهيرة الرمادية"

كان الشاطئ الرملي فارغاً في الظهيرة الرمادية والمرتفعات مكسوة باللون الرمادي وقلعة غوزمان التي بناها الناصر كحماية للجنود غارقة في نور الشمس في جزيرة طريفة بالاسبانية Tarifa تاريفا أو جزيرة اليمامات مقابل طنجة، التي إحتلها القائد الامازيغي طريف بن مالك عام ٧١٠م خلال فتح الاندلس، قبل دخول طارق بن زياد اسبانيا لكن المؤرخين أغفلوه كما يحدث في كل التاريخ عندما يكون رواية سلطة. قال عنها الإدريسي في كتابه:

" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق":

«فأما جزيرة طريفة فهي على البحر الشامي في آخر المجاز المسمى بالزقاق ويتصل غربها ببحر الظلمة،وهي مدينة صغيرة عليها سور تراب ويشقها نهر صغير وبها أسواق وفنادق وحمامات وأمامها جزيرتان صغيرتان تسمى إحداها «القنتير» وهما على مقربة من البر ومن جزيرة طريفة إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً تخرج من

الجزيرة إلى (Guadalmesí) وهو نهر جارومنه إلى الجزيرة الخضراء»

تلك الظهيرة لم يكن هو الرمادي العادي بل بلون الخوف الطارئ، ولون الحنين البرتقالي يبرق بالألق ولو على حافة مقصلة بتعبير ميلان كونديرا. عبر الناظور شاهدتها محلقة في الهواء ثم ترتطم بالرمل الابيض في حين عاد الحصان وحيداً.

عودة الحصان، وحيداً، في ذاكرة العرب عودة مشؤومة، فقلت تحت حالة هياج لصاحب الحصان الاسباني:

" لو حدث شيء لها سأقتلك لأنك أعطيتها أسوأ حصان".

رد مرتبكا بانكليزية مبعثرة:

" لا يا سيدي هي ارتكبت خطأً وبلا شك كانت على غير ما يرام قبل الركوب وكانت تلوح مرتبكة".

كان على حق والخيول تمتلك حاسة عميقة يفتقر لها البشر وهي معرفة أحاسيس ومزاج الراكب وقد تكون مرت تلك اللحظة بذكرى جرح عفن. قبل أن نصل ركضاً على الساحل الرملي الأبيض، نهضت واقفةً كطيف على ساحل مرصع بضوء نهار رمادي باذخ في تلك الظهيرة الرمادية و أقبلت راكضة وهي تنفض ثيابها من الرمل.

" ماذا حدث ؟".

قالت لاهثة:

" لا أدري على وجه الدقة لكني شعرت بتوعك نفسي وحاولت تغيير وجهة الحصان فتمرد".

هز السايس رأسه بطريقة و اثقة عن معرفة السبب. قال:

" الخيل تعرف المزاج النفسي للراكب ومن الخطأ تغيير مساره فجأة ما لم يكن أمامه أي عائق".

قلت:

" العرب الحكماء قالوا: الخيّال يعرف فرسه». بلغة مشفرة عن الحدس والرهافة في معرفة نوعية المرأة، يوم كان الخيال فارساً وذكياً وحساساً. غادرنا الشاطئ الذي بدأ السياح يتدفقون اليه وارتفعت في الفضاء الأشرعة الملونة. قالت بصوت متهدج:

"كنت على غير ما يرام قبل الركوب".

قلت:

" سنذهب الى بنسيون ماريا لأخذ الحقائب".

ضحكت من كلمة حقائب وقالت:

" حقائب؟ حقيبتك نفسها التي عبرت بها أوروبا وآسيا و أفريقيا والمحتويات نفسها باستثناء الكتب،

النوم في محطات القطاروالمطارات والارصفة والفنادق والشقق المستأجرة كما لو أن الحقيبة عضو في جسدك: من اسلام آباد الى أوسلو،من هامبورغ الى ستوكهولم، ومن دمشق الى فيينا، ومن باريس الى طنجة وبرشلونة ولشبونة والخ. وأضافت فجأة:

لماذا كنت تبحث في ميناء لشبونة عن أماكن رو اية» ليلة لشبونة» المدهشة لأريك ماريا ريمارك؟»

" لا أدري تحديداُ، ربما هروبه من النازية والتشرد والبحث عن بلد والتسكع والبحث عن أمل أو مصادفة منقذة للهروب الى بلد آخر، ولم أعثر على تلك الامكنة باستثناء النادي الروسي وكنيسة وقد يكون اخترع بعض الأمكنة كالحانات والرو اية تدور في ليلة واحدة، لكنها تختزل بكثافة مذهلة تاريخ أوروبا الاستعماري الملطخ بالعار والحروب والاستغلال".

من باب مدخل البنسيون شاهدت ماريا مالكته ترقص على أغنية فرقة جيبسي كنغ «ملوك الغجر" Gipsy Kingsتمزج بين أغاني الفلامنكو والغجر بلهجة اندلسية اسبانية وغالبية أعضاء الفرقة هربوا من اقليم كاتالونيا خلال الحرب الأهلية الاسبانية في الثلاثينات

والمؤسسون خليط من مغاربة وفرنسيين واسبان وجزائريين خلقت الموسيقى هوية مشتركة بينهم وأشهر أغنية لهم هي بامبوليو.

قالت:

" الحرب تحاصرك في كل مكان حتى أحفاد فرقة ملوك الغجر ضحايا حرب"

"وفي هذه اللحظة العراق يحترق".

كانت ماريا آخر سلالة عربية تدور حول نافورة المياه وترقص غائبة عن المكان وشرعت تترجم مقاطع من أغنية Gipsy Kings,Amor Mio "لا ترحل بعيدا» لفرقة ملوك الغجر من الاسبانية الى العربية لأن اصولها عربية من غرناطة:

" من فضلك لا ترحل،

لا تذهب بعيدا لأنني

أنتظر هنا ساعات،

انا لن أعود ولن يعود،

لا أريد أن أتذكر".

غادرنا البنسيون وودعنا ماريا، المساء، الباخرة، قلعة غوزمان، طيف الناصر، بواخر العرب المحترقة، التلال المشرقة بضوء الغروب الغسقي، البحر، بخار القهوة ونحن نجلس متقابلين في صالة الباخرة المزدحمة.

قالت:

" سنأخذ القطار حالاً من طنجة، ثم إلى أين؟".

لم أجب لأنني لا أعرف إلى أين وفكرت دائما لماذا يجب أن نعرف إلى أين؟. من فوق سطح الباخرة كانت أضواء الجزيرة الإيبيرية تبتعد، ومع الأضواء المبتعدة، مع البحر المضطرب، مع القلاع الحجرية القديمة، مع الباخرة المبحرة نحو طنجة والساحل المغربي، كانت أغنية ملوك الغجر تلاحق الباخرة مع النوارس ولا جنود في قلعة غوزمان.

٢٧

"   إن السبب الوحيد لوجود الرواية هو اكتشاف ما تستطيع الرواية وحدها اكتشافه. إن الرواية التي لا تكتشف عنصراً مجهولا في الوجود، هي رواية لا أخلاقية. المعرفة هي السمة الأخلاقية الوحيدة في الرواية» - ميلان كونديرا.

لماذا لا نضع البحث والكشف والابداع والشجاعة الادبية والمغامرة الفكرية، وخلخلة السكون وكشف الأقنعة، والدفاع عن الكرامة البشرية، والوضوح،

كجزء جوهري من أخلاق الكاتب ومن أخلاق الانسان والمثقف؟ أليس النسج والسرد اللغوي والجمال والابتكاروالخلق من الأخلاق أيضاً؟

وماذا تنفعنا الأخلاق الشخصية للكاتب الفاشل؟ ماذا يهمنا كيف عاش شكسبير حياته الخاصة أكثر مما تهمنا أعماله الخالدة؟ تناقض وصراع المفكر والفنان والمثقف والكاتب مع السلطة السياسية والاجتماعية والمؤسسات والصراع بينهما تم عبر التاريخ

ولم تكن العلاقة يوماً علاقة انسجام حتى في الدول الاسكندنافية المرفهة، لكن» التطابق» بينه وبين السلط موجود في دولنا رغم كل الفظاعات والاكراهات. وإذا كان الكاتب متطابقاً ومتصالحا مع المجتمع، فلماذا لا يصبح بائع شاورمة بتعبير حنا مينا؟

اختزال الانسان في موقف واحد حقيقي أو متخيل، هو سلوك سلطة تؤرشف للناس، وخاصية العقل المتخلف: أبيض وأسود.

الانسان طاقة تحولات من الولادة وحتى الموت، من اليقظة وحتى النوم وما بعد النوم في الاحلام، ومن الغباء حبسه في حالة أو موقف وغلق حياته كملف.

أخلاق الكاتب والفنان في أن يعمل بكفاءة وموهبة وإخلاص، وعكس ذلك لا تشفع له أخلاقه الاجتماعية لأنها شأن خاص.

ما الذي يهمنا مثلاً كيف كان عاش البيركامو أكثر مما يهمنا نصوصه الابداعية العظيمة في الغريب والطاعون والمقصلة والمتمرد؟

هو القائل:

" تعرفون إسمي ولا تعرفون قصتي، تعرفون ماذا فعلت ولا تعرفون الظروف التي مررت بها، فتوقفوا عن الحكم عليّ و إنشغلوا بأنفسكم."

ماذا يعني لنا أن فلوبير كان يشرب أكثر من خمسين فنجان قهوة في الليلة الواحدة لكي يكتب، أكثر مما تهمنا رائعته: مدام بوفاري؟

كارل ماركس كان في شبابه زبون حانات ومطاردة النساء وعليه دعاوى مشاجرات كثيرة، لكنه قلب العالم حتى اليوم.

ماذا يعني لنا أن سلفادور دالي عشق زوجة الشاعر بول ايلوار غالا وتزوجها أكثر مما تهمنا لوحاته؟

ما الذي ينقص، مثلاً، مثلاً، من غابريل ماركيز عندما لكمه الروائي ماريا بارغاس يوسا يوماً أمام زوجته مرسيدس وكلاهما حامل نوبل أكثر مما تهمنا روائعه في: مئة عام من العزلة وليس للكولونيل من يراسله وحكاية موت معلن؟

ليست مسؤولية أحد محاكمة أو محاسبة الشاعر جيرار دورنيفال لانتحاره فهو وحده عاش ظروفاً خاصة، وهو وحده تعامل معها ونحن نسمع قصته من السطح ولا نعرف كيف هي التفاصيل فلماذا ننشغل بحياته،

وننسى انجازه الشعري؟

ديستوفسكي كان مدمناً على القمار والشراب، لكن عظمته في رواية الجريمة والعقاب وفي غيرها، أليس بناء عوالم مغايرة ونزع

النقاب عن الزيف هي أيضاً أخلاق؟ في نوبة غضب وسعار قتل التوسير زوجته بحجرة في الشارع صدفةً، لكن من المستحيل تجاوز كشوفات هذا العالم اللغوي، حتى أن المحكمة نظرت بذلك.

قضى نيتشه سنوات في مصحات عقلية، لكن لا أحد اليوم ينسى أو ينكر أنه هو مؤسس الحداثة الغربية. أليست هذه أخلاقاً في جعل الناس يفكرون بطريقة مغايرة مما عجزت عنه دول ومؤسسات خلال قرون؟ رغم كل الهوان والاهمال والمتاعب التي تعرض لها نيتشة، لكنه و اثق من نفسه وقال عبارة تحمل نبوءة مذهلة و اثقة: أنا رجل سيولد بعد موته"،

اليوم في الغرب يجري اكتشافه.

ميشيل فوكو قضى سنوات في مصح عقلي إجباري مغلق، لكنه هو من حرث الفلسفة الغربية وفضح تاريخ الغرب المخفي والمسكوت عنه في كتابه المرجعي الذي غير تاريخ الفكر والطب والثقافة:

" الجنون في العصر الكلاسيكي".

الرو ائية النمساوية ألفريدي ألينيك تعاني من رهاب الخوف من البشر، ولم تذهب لحفل نوبل لاستلام الجائزة، لكنها مع ذلك لم تنس العراق ووضعت كتاباً ضد الاحتلال بعنوان: بلاد القنبلة يوم

كان مثقفوه يحتفلون بخرابه.

ما هي المشكلة إذا كان بيكاسيو تزوج ٦ مرات،

وكان مولعاً بشراء الأحذية حتى أنه إشترى مرة أحذية كل المحل وعندما جاء بعده الشاعر لويس أراغون أحد شعراء المقاومة الفرنسية، ولم يجد حذاءً ليشتريه وبيكاسيو صفر المحل؟ يكاسيو موجود في لوحاته الخالدة، وأخلاقه في هذا الابداع الهائل.

أراغون نفسه قبل التعرف على إيلزا المثقفة كان كحولكياً ينام على الأرصفة، لكن إيلزا أعادت صياغته لذلك دفن معها في قبر واحد متحاضنين.

الفيلسوف البريطاني شوبنهاوركان يعاني من رهاب القتل، ويخشى أن الروائي الفرنسي بلزاك يعبر بحر المانش ويقتله، ولا ينام إلا والمسدس تحت وسادته، لكن من ينكر فلسفة شوبنهاور؟

الروائي أرنست همنغواي مصارعة وملاكمة وحروب وتكسير صحون ومشاجرات بارات وصيد وإطلاق نار وعلاج من جنون الارتياب، لكن أخلاق همنغواي في رواياته العظيمة: لمن تقرع الاجراس، وداعاً أيها السلاح، والشمس تشرق أيضاً.

الشاعر بودلير- مخدرات وكحول.

الشاعر هولدرن - كآبة.

أنطونيو أرتر - قلق و انتحار.

كافكا . قلق وجودي من الحياة.

الشاعر لوتريامون - كآبة و انتحار في العشرين.

الفيلسوف ديكارت - شبه مجنون.

الشاعر الالماني نوفاليس - قلق حاد.

غوته حاول الانتحار وفشل مرات فكتب رو اية « آلام فارتر" وجعل بطلها ينتحر بالإنابة عنه.

ثلاثة من كبار فلاسفة أوروبا سارتر وجاك ديريدا وسيمون دي بوفوار، عصاب نفسي حتى أن ديريدا شكر العصاب لأنه منقذ من القطيع.

فولتير وبلزاك وفلوبير، عادات غريبة، وجنون دوري. الكاتب الأمريكي أدغار ألان بو، مخدرات وهلاوس وكحول.

الفيلسوف السويسري جان جاك روسو الذي غير حياة الغرب بكتابه العقد الاجتماعي وهرب الى فرنسا كان يعاني من الخوف وعقدة المطاردة والارتياب.

لحظة مؤثرة عندما وقفت أمام داره في جنييف قبل سنوات. الروائي كونراد وموباسان وكامو والموسيقار بتهوفن، الرسام كلود مونيه والرسام فان كوخ قلق وخوف وانتحار. الروائية فرجينيا وولف كآبة وانتحار. عالم النفس فرويد نفسه عصاب نفسي انتهى بالانتحار، لكن لا يمكن إنكار ثورته في علم النفس بعد أن جعل العقل حقلاً للدراسة والبحث بدل تركه للمشعوذين.

الفيلسوف الدنماركي كيركغارد والشاعر الالماني ريلكه، الروائي الروسي باسترناك والشاعر البرتغالي بيسوا قلق وكآبة.

الشاعر الروسي مايكوفسي، إنتحار، الرسام سيزان أيضاً، جان جينيه والروائي المغربي محمد شكري، كحول ومخدرات وعصاب. الموسيقار الألماني شومان كان يقيم حفلاً في منزله، لكنه فجأة استأذن من المدعويين لقضاء عمل، ذهب إلى نهر الراين ورمى نفسه في النهر منتحراً لكن صيادين قربه أنقذوه وتشاجر معهم.

ماذا تهمنا تلك الحادثة أكثر مما تهمنا موسيقاه التي تصدح في صالات برلين وفينا وباريس وغيرها؟ يقال اليوم في الغرب إن الحداثة الغربية من صنع مجانين،

لكنه الجنون الإبداعي وليس الخبل والعته. هؤلاء كانوا أطفالاً عمالقة كشفوا دروباً جديدة، بحساسية ورهافة ومغامرة فكرية

خارج النمط والسياق، ومن حسن حظهم أنهم عاشوا في مجتمعات متفهمة وفارغة من المعارات الصبيانية والقبلية كما في عالم مثقفينا.

هؤلاء واجهوا ظروفاً صعبة وهم وحدهم من تعامل معها، وكل ما يهمنا أن أعمال هؤلاء خففت من ضراوة الوحشية، ويمكن تخيل العالم بلا هؤلاء العظماء. يتباهى البعض بال« التوازن» و« العقلانية» في هذه المذبحة المستمرة، وهو التوازن نفسه الذي نراه في المقابر وخيول الاسطبلات بعد العلف.

القلق الفكري ليس نقيض التوازن والانسجام بل وجهه الآخر، والعقلانية لا تعني التحنط أمام البشاعات والظلم والجرائم إلا إذا اعتبرنا الأبقار التي تسرح مطمئنةً في العشب قرب جدران المسلخ عاقلة ومنسجمة.

٢٨

-القنابل التي سقطت فوق برلين، سقطت فوق اللغة والأدب والمسرح والحياة اليومية:

* أريك ماريا ريمارك، مؤلف رو اية: للحب وقت وللموت وقت.

بعض الاشخاص عندما يقف في مواجهة شيء مفرط الجمال، رضيع نائم يحلم، ساحل في غروب رماني متوهج، وجه بري نافر، لوحة مشرقة، حديقة منعزلة، ضوء متوهج ينعكس على جدار متهدم منسي، عشب في حفرة مهملة، عش صغير في ثقب حائط، دمية تحت المطر في حديقة، عصافير تتشاكس في بركة ماء في ظهيرة حارة، تنتابه رغبة في الفرح وفي حالات البكاء، أو الخرس التام، الخرس الذي الذي يجعلك ترى وتفكر بأحاسيسك، فالجمال البري لا يُرى بالعقل بل الحواس ولو غابت فلا شيء يرى. الجمال في الأحاسيس قبل الأشياء، كيف تستطيع مر ايا محطمة أن ترى ضوء الوجه الباهر؟ وكيف ترى الذات المهشمة النور السري خلف مظاهر الاشياء والوجوه؟ وكيف ترى النظارات المغبرة الحقول المزهرة؟

في حالات و أنت تتجاوز شارعاً في منطقة العبور، ترتطم بوجه لا تعرف من مر جنبك كنيزك مشع أو عاصفة أجراس سرية تقرع فيك، كلطمة على الوجه مفاجأة، وخلال هذا المرور الخاطف تشعر أنك تنمو وتشرق وتتفتح، كما لو ان مصيرك تغير خلال هذا المرور الخاطف البري.

عادة تنبثق الأشياء الجميلة من اللامتوقع، من مصادفة، من عثرة رصيف، وفي حالات من حماقة بسيطة فتتعرف بعدها على أجمل ما في الكون من لطف يتجاوز الجمال، لأن اللطف جمال أبدي في حين الجمال الشكلي زائل. في حالات تربطك مصادفات وظروف وحماقات وبراءات مع بشر لوقت طويل، فتشعر أن حجمك يتضاءل، روحك تنطفئ، وهجك يخبو، ورسائل تهديد تأتي من أعماقك تنذر بوجود خطر وشيك لأن الجسد محاط بشبكة حماية من الأخطار يمكن رؤيتها بالعين المجردة في وضعية جلوس خاصة تحت الشمس سترى هالة ضوئية باهرة أو بالمجاهر الطبية تسمى في الثقافات الآسيوية Chakras الشاكرا وفي العلم الحديث مراكز طاقة الحياة تساعد على التوازن والانسجام والحماية من سبع طبقات.

في حضور معتم، تنطفئ بصمت كشمعة في الظلام، كعود بخور يحترق منكسراً قرب نفاية. أمام جمال الكائنات البرية تشم رائحة عطر بري، وتنبثق فيك أحاسيس جديدة كأصابع طفل على وجهك

وأمام صنف آخر لا تشم غير رائحة العفن عالقة فيك لوقت طويل، البشاعة تعدي أيضاً وتحتاج الى ألف قطعة موسيقية والاستحمام في أكثر من بحر وألف قنينة عطر، لكي تنسى:

« من كثرة معاشرة الوحش، رائحته تلتصق، الآن،

بجلدك»* الشاعر عبد اللطيف اللعبي.

٢٩

« وحيداً في الظلام أقلب في رأسي العالم من حولي بينما أغالب نوبة أرق جديدة، ليلة بيضاء جديدة في البراري الأمريكية الشاسعة ».

هذه افتتاحية « رجل في الظلام» على لسان أوغست بريل ناقد الكتب الذي تعرض لحادث سيروصاركل ليلة في السريريبني عوالم موازية لعالمنا للافلات من حوادث حياته السيئة وهو من اخترع شخصية أوين بريك المتخيلة المكلف بقتل مؤلف حكاية الحرب لكنه يقطع طرقاً ويصادف أحداثاً وأهوالاً دون تحقيق هدفه. لكننا لا نعرف من هو المؤلف المطلوب اغتياله: هل هو بول أوستر؟ أم شخصيته في الرو اية أوغست بريل؟ لأننا هنا أمام أكثرمن مؤلف. من الواضح ان بريل يعاني من مشاعر الاغتراب عندما يشعرالانسان أن مصيره ليس في يده حتى لو كان في داره ووطنه و انه فائض عن الحاجة وتفصيل أو برغي في عجلة ضخمة مسننة.

سمعت مصطلح الافتراس الذاتي أول مرة من رسام محلي مغمور

كان يسكن في العمارة نفسها، وجدته يوما وقد تحول الى فأرحقيقي، عاجزاً عن رفع قدح القهوة التي أعددتها بنفسي حيث تتكدس اللوحات والاصباغ والاحذية والسجائر وعلب المشروبات والنبيذ والشوكولاته.

" ما الذي تفعله بنفسك؟"

أجاب:

" أفترسها"

" والسبب؟"

" فقدت الموضوع والأهم دخلت في تعارض معه ".

فقدان وتعارض؟ هو الصراع المهلك ويحتاج الى معجزة للنجاة منه، لأنه سري ومموه ومغطى ومقنّع ويأتي بحيل التفافية عقلية ونفسية ليضيع تماماً ويسمى في قاموس علم النفس التنافر المعرفي: بالإنجليزية: cognitive dissonance) وهو حالة من التوتر أو الإجهاد العقلي أوعدم الراحة التي يعاني منها الفرد الذي يحمل اثنين أو أكثر من المعتقدات أو الأفكار أو القيم المتناقضة في نفس الوقت، أويقوم بسلوك يتعارض مع معتقداته.

فقدان كل شغف واهتمام ورغبة، ومشي على حافة الهاوية بين

قناعات متضاربة تمزق صاحبها بصمت.

تموت فيه الحياة ويصبح حطباً يمشي للحفاظ على المظاهروربما كان أوغست بريل من هذا النوع أمام توحش دولة رأسمالية.

يلتهم كثيرون أنفسهم كل يوم دون معرفة كمية المشاعر والأحاسيس التي تسحق وتتعفن وتختفي وكمية الحياة التي تنطفئ بصمت. أنت حي وتعيش انقراضك البطيء، مع فقدان الموضوع، وهو خارجي، يكون الارتداد للذات، الاجترار والحداد والسوداوية، نوع من التهام الذات كمطحنة فارغة تلتهم الفراغ.

قلت:

" يبدو كما لو أنك انتهيت تواً من قراءة سيغموند فرويد عن الحداد والسوداوية أو جاك ديريدا أو لاكان لكي تحدثني عن التنافر المعرفي وفقدان الموضوع ".

كما لو أنه أفاق فجأة ليقول:

" كيف عرفت ذلك؟"

" كيف عرفت ذلك؟ لأنك تعتقد أن المعرفة خاصيتك كأوروبي، ولا يمكن لعربي أن يعرف، قلْ لي ما الذي يمكن أن أفعله لك لكي تخرج من هذه المتاهة النفسية ومن خلق عوالم موازية كأوغست

بريل تعمق من اغترابك؟"

" لا شيء".

قالها بصوت تالف ومنكسر واستأذنته في الخروج.

هو الشعور بالاغتراب الذي يعيشه المثقف حتى لو كان في وطنه، والاغتراب النفسي أقسى من الغربة المكانية، وكانت مفارقة غريبة أن نتقابل معاً هو و أنا وكلانا في منفى في وضعيتين متعاكستين. المثقف والفنان والكاتب يدخل في منفى من لحظة التصادم مع الذات والمجتمع والمفارقة هو في منفى نفسي وفقدان الذات واغتراب و أنا في منفى مكاني والتعرف و اكتشاف ذاتي.

في يوم آخر كنت في الطريق الى المسبح العمومي المغلق السقف. كان الثلج ينثال عندما خرجت في المساء، الشوارع فارغة كالعادة في المساء الاسكندنافي رن الهاتف الخلوي:

" هل يزعجك أن أقول لك شيئاً مؤلماً الآن؟"

كانت صديقته وهذه الطريقة المهذبة هنا:

" أعتقد الأمر يتعلق به؟ ".

قالت بصوت تالف:

" ذهبت الى شقته ووجدت كل شيء انتهى بقراره"

من دون تفاصيل محزنة وهذه الطريقة السائدة في الاخبار عن الانتحار. من نافذة الحافلة كان المطر ينثال فوق الأشجار والمرايا، المصابيح وزجاج المحال، وأنا في الطريق عائدا الى المنزل سمعت أغنية سويدية للمغنية ميليسا هورن، المطر والحداد ومصابيح الشارع والسكون الليلي، والثلج ولوحات على الحائط وأغنية .كيف تضع كل هذه التفاصيل المبعثرة في عبارات وروابط؟.

على غير توقع، لأن ذاكرة المنفي تمضي في كل الاتجاهات بلا سياق أو تسلسل، مرّ طيف الشاعر عبد الوهاب البياتي وكيف مات في دمشق عام ١٩٩٩ وهاجس الموت سماً تكرر كثيراً في قصائده وحواراته الأخيرة.

«قالت ستموت غداً مسموماً في المنفى،

أو مذبوحاً بسكين صديق»

الموت سماً، بتعبير البياتي نفسه، في آخر كتاب له «مدن ورجال ومتاهات» الصادر عام ١٩٩٩ عام وفاته كان هاجساً وهو ظاهرة ليست جديدة في الأدب العربي.

في حوار افتراضي للبياتي مع شاعر عراقي، فيه تكرار لقضية

الموت سماً وبلا شك شاعر المقابلة لا يتوهم أو يتخيل فقط بل وضع معلوماته في إطار التخيل، على قول سارتر «سأقول الحقيقة عن طريق الخيال» لأن جواب البياتي الافتراضي تضمن بعض الحقائق التي لا شك تدور في عقل كاتب المقابلة:(أنا متُ مسموماً ومسروقاً في منزلي الدمشقي، فقد كان سهلاً على شخص مرسلاً من قبل أجهزة الدكتاتور العراقي التسلل لبيتي لكن لم يتحدث أحد عن الاغتيال).

« فكيف بلغتك العقرب في بلاد الشام لتقتلك بسمها؟ هل للبياتي أن يقول شيئاً عن موته في تلك اللحظة؟»

- « لقد بلغتني أكثر من اشارة من برزان التكريتي من جنيف، بأن وجودي خارج العراق إنما بات يوسع من دائرة الكتاب والأدباء المعارضين لنظام صدام في الخارج، لذا طلب مني أن أشحن جسدي قبل حقائبي الى بغداد، لكني لم أعر لرغبته اهتماماً لذلك قرر أن يرسل العقرب الى دمشق. كان صيدي سهل المنال في تلك الشقة المحروسة بالخمر والليل والوحدة وذاك الصديق السمّار الذي سرق كل مدخراتي من الأموال من دون أن يدقق أحدُ بالجريمتين».

من هو سارق مدخرات البياتي؟ في كتابه السيروي الأخير ترك لنا البياتي خارطة طريق لتقصي درب قاتله فوصفه بالشويعر واللص وقد يأتي روائي لتتبع سيرة القاتل يوماً ويكتب لنا رواية «التاريخ

البديل» غير المروي. كان هاجس البياتي في انتظار الصديق القاتل ليس نتاج فوبيا القتل ولا توقعه من غير دليل. هناك صورة محددة في ذهن الشاعر للقاتل الصديق كما توقع هو: لص والقتل بالسم، فكيف حدث ذلك؟ ومتى ولماذا وتحت أي ظرف ارتبط البياتي مع صديق لص وشيوعر وعقرب سام؟ في عمان أم في دمشق تعرف عليه ووضع له السم بحيث يظهر بعد شهور ويبدو الموت عادياً؟ صورة من كانت في خياله؟ المعروف ان كل كتب البياتي السيروية تعكس حياته. في «مدن ورجال ومتاهات» تحدث في الفصل الأول «أبو تمام في مدينة الشمس» عن قتل الشعراء على» أيدي الغوغاء والشويعريين والمأجورين لبعض الحكام». هذه صفة أخرى للقاتل: مأجور من قبل نظام: لص وشويعر، لقد نصب البياتي فخاً لقاتله وعلينا البحث عنه وترك لنا خريطة دقيقة لتتبع القاتل ومطاردته بعد أن حدد ملامحه في كتابه الأخير وفي غيره وعلينا فك الشفرات أو نستعين بدان براون مؤلف شفرة دافنشي:صديق سمّار. لص . قاتل . شويعر مأجور، حاول فضح قاتله لكن بعد فوات الأوان، لقد انطلق السم وتم قنصه من خلال لص قريب. ماذا كان يفعل هذا اللص في منزل البياتي؟ مرتب منزل؟ طباخ عميل؟ كيف عرف أنه لص من دون أن تكون له سوابق؟ بلا شك لهذا القاتل علاقة ما بالشعر، وإلا كيف اقترب من البياتي الانتقائي والنخبوي في علاقاته؟ تم اصطياد الطائر الحذر من منقاره. الدكتورة ميسون البياتي ابنة أخ

البياتي كتبت مقالاً بعنوان» هل مات البياتي مسموماً؟» لكن المقال حذف بعد أيام. لم يكن البياتي يخطط للحرب وليس من المحتمل أن يكون أوين بريك في رو اية رجل في الظلام قد اغتاله، لكن هناك من فعل ذلك والأرجح رثاه. قاتل يكتب سيرة قتيله.

٣٠

" العزلة المضيئة"

- عزلتي حاضرة أصلاً، ليحرقها من يحرقها.

لويس إيميه: إسم النار

لم يكف المطر الرذاذي منذ الصباح حتى المساء، لم يتوقف خشب الموقد عن الفرقعة، البرق ايضاً، مع النار والمطر والبرق أدخل في عالم قديم، وحسب غاستون باشلار في كتابه:»لهب شمعة“ إن لهب شمعة هو من بين أشياء العالم التي تستدعي الأحلام، وهو من أعظم صانعي الصور، اللهب يجبرنا على التخيل:

« وحالما تشرع بالحلم أمام اللهب فإن كل ما تراه يصبح لا شيء أمام ما تتخيله“. لماذا اللهب يجبرنا على التخيل، في حين لا يستطيع المصباح فعل ذلك؟

علاقة الانسان بالنار قديمة وهي تستدعي ماضيه العريق وعلاقته بالغابات والنيران التي لم تنطفئ في الذاكرة العميقة، في حين علاقتنا بالمصباح حديثة:

نار الموقد وشعلة اللهب تضيء الخيال، في حين المصباح يضيء المكان. المصباح صامت وجامد لا يتحرك حتى ننساه، لكن لهب شمعة يرقص أمامك ويعيدك الى زمن البراءة المفقودة، وزمن الحكايات وطقوس الرقص على النار.

المصباح لا يحتاج الى من ينظر اليه لأنه بلا ذاكرة ولا روح، في حين النار ذاكرة وروح وخيال، كل المصابيح في محطة أو منزل أو حفل لا توقظ أحلام العزلة، لهب شمعة وحيد وأعزل قادر على إطلاق فيض من الصور، هو لا يضيء في الصخب والضوء الحارق.

من المستحيل فصل لهب شمعة، حاولت مرات أشطره الى إثنين لكنه تمايل وتر اقص وعاد والتحم، يشبه الى حد كبير وحدة القلب تحت البرق والمطر وقرب النار.

المطر ينثال فوق أشجار الحديقة، أشجار الحديقة سياج بيني بين شقة مذيعة نشرة أخبار في محطة تلفزيون NRK١ الرسمية: حلّت مكان العراقي الذي دخل في مصح عقلي بعد أن أرعبته حرية واسعة طارئة متأخرة كحفل عيد ميلاد لمحتضر بعد أن تحول الى أنقاض. تضع موسيقى مونامور الر ائعة للموسيقار خو اكين رودريغو أعظم الموسيقيين الاسبان التي وضعها بعد فاجعة شخصية ودخلت التاريخ الاسباني كأروع قطعة موسيقية.

نيران الموقد تطلق الخيال، موسيقى مونامور الحزينة توقظ الذاكرة، نسيت عالم بول أوستر وأحلام يقظة بريل، وتخيلت البحر الأسود في مساء صيفي قديم وفي البعيد باخرة صيد و اقفة، ورصيف المشاة غاص بالمتنزهين وأشياء أخرى. لا يمكن أن تتخيل وتتذكر في وقت واحد: الخيال خلق والذاكرة استعادة، الخيال يتجه في كل الأنحاء والذاكرة في خط واحد،

الذاكرة اجترار والخيال تشكيل مستمر: مع من أمضي؟

أغلق النافذة لكي أوقف الموسيقى وتدفق الذكريات،

خلف النافذة أشجار السرو مشعة ومبللة تحت المطر، خلف الأشجار خليج وخلف الخليج جبال،

وخلف الجبال بحر لكن ماذا خلف البحر؟ من الغريب أن القط كلما توقفت فرقعة الخشب يفيق من النوم، هو منطرح أمام الموقد كملك مرفه وينظر إلي. هل هو أيضاً يتخيل؟

عندما وضعت الحطب عاد الى النوم أو للتخيل، من منا يحلم أو يتخيل؟ كم عدد الاشياء هنا تمتلك ذاكرة؟ أنا والقط والنيران ولهب شمعة والمطر والأشجار وموسيقى خواكين، وروا ية رجل في الظلام، وماذا بعد؟

ربما نسيت الجدران وصورها وتواريخها ومناسباتها، الطاولة أيضاً منذ سنوات تتحمل كل شيء كفرس تقطع صحراء بلا تعب، المكتبة وكل كتاب له ذاكرة وتاريخ ومؤلف وبلد وسيرة حياة، لهب الشمعة القادم من أزمنة منقرضة، المطروكل قطرة لها ذاكرة حسب العلماء ومن أين جاءت ومتى ولدت، وحين انتهيت من كتابة العبارة الاخيرة ولمست اصابعي، تذكرت أن للأصابع ذاكرة عميقة جداً: لو وضع شخص ما يده على عينيك من الخلف، وتلمسته برفق ستعرف من هو: لا ينسى جسد نظيف ذكرى نقية. كنت أعرف أعمى يعرف الناس من المصافحة. لويس بورخيس يعرف الكتاب في مكتبته من اللمس. لم يتوقف المطرولا البرق ولا النارولا اللهب. هناك شيء ما مفقود في كل هذه الحلقة، لأن العزلة تكتمل بوجود مضيء آخر.

٣١

كان القطار يخترق الاراضي السويدية الخضر المشمسة، بعد أن خرج، تواً، من أنفاق جبال النرويج المعتمة لكي ينفتح على البراري المشعة بالبهاء والضوء والحرية والوضوح، لكن القطار السويدي لا يشبه ذاك القطار،لا قناطر، لا تحت السنابل قطا، لا فوانيس المضايف، لا ريحة هيل ولا دق قهوة، ولا «آنه أرد الوك الحمد“. القطار السويدي لا يشبه قطار بصرياثا الذاهب الى بغداد، لا يشبه قطار محمد خضير، ولا قطار بغداد الصاعد لمحمود عبد الوهاب ـ قطار الحكاية، ليس هو قطار فيلم المخرج انغمار بريغمان، ولا قطار بودابيست أو قطار المعقل، ولا قطار كراتشي يوم كنا في الطريق الى السجن الباكستاني بعد قرار التسليم الفاشل الى العراق بالقوة كرهائن، ولا قطار الدار البيضاء - طنجة، ولا هو قطار الشاعر حسين عبد اللطيف وهو يحمل ركابه الميتين.

هذا القطار السويدي الواضح والمشع بالشمس والوضوح أيقظ داخلي قطارات كثيرة، ومنها القطار الاخير الى الجبهة التي لم تكن هادئة تلك الايام في الجانب الشرقي، قطار محطة بغداد ذات البناء

الفيكتوري.

لم يكن كل شيء هادئا في الجبهة الشرقية. هذا القطار السويدي لا يحمل الجندي نفسه الذاهب في رحلته الاخيرة نحو الموت، بعد فشل كل الأحلام في وطن نظيف، في سرير نقي، ووسادة آمنة، في شوارع حقيقية سعيدة، وحقول مشمسة، وباب دار آمن.

كان القطار الاخير في الليل الذاهب الى الجنون أو الجنوب؟ هل من فارق؟

ليل ومطر وحرب ومصابيح زرق وشوارع شاحبة وكلاب مشردة من خلف نافذة القطار، ونو افذ مطفأة، لكن الر ائحة خلف زجاج النافذة قوية، رائحة عشب وهيل، وتحت السنابل قطا، ومضيف حمد يضوي بالفو انيس كدليل للضيوف التائهين آخر الليل، يوم كان الضيوف ضيوفاً، وكلاب المضيف كلاباً حقيقية.

لكن هذا القطار السويدي بلا دق قهوة، لا يشبه قطار ومحطة المكيِّر في أور الناصرية: ماذا يريد المكيّر يطاردنا في المنافي؟ ماذا يريد قطار انغمار بريغمان؟

هذه المحطة السويدية لا تشبه تلك المحطة، لا تشبه محطة المعقل. هل يجب أن تتشابه القطارات والامكنة لكي نعيش؟

هل يجب أن ننقل قطارات الذاكرة والحكايات لكي تنسجم مع قطارات الو اقع؟

البصرة: ليل ومطر ورصاص وقنابل. قصف مدفعي عنيف ذلك اليوم مما جعلني الجأ الى كنيسة في شارع الوطن، لكني اصطدمت في باب الكنيسة بأحد الرهبان أو القساوسة هارباً مذعوراً من الكنيسة في الوقت الذي كنت أحاول أحتمي بها، تذكرت قول بودلير» إن الجنود والعشاق أكثر شجاعة من الرهبان".

اذا هرب الراهب من بيت الرب، فأين يحتمي؟ مطر وليل ورصاص وجسر الشلامجة، التنومة، وشاحنات وقصف، لكن لماذا أيقظ هذا القطار السويدي كل تلك الصور النائمة؟ يجب تحوير المكان السويدي لكي يشبه البراري الجنوبية، أين نضع المضيف؟ اين نضع الفوانيس؟ اين نضع رائحة القهوة؟ أين نضع قطار محمود عبد الوهاب ومحمد خضير في بصرياثا؟ بل أين نضع الليل والقناطر؟ وكيف يمكن استدعاء رائحة قهوة» حمد»؟ ومن أين لي زرازير البراري؟ من أين تنبع الأغنية؟ « عيونَك، زرازير البراري

بكل مَرحها بكل نَشاط جناحها،

بْعالي السَحَروالروح مِنّي،

عوسجَة بَرما وصَل ليها النده، ولا جاسها بگطرة، المطر".

ليل جنوبي وراهب هارب من الكنيسة وقنابل وتحت السنابل قطا، والشاعر حسين عبد اللطيف يصرخ بقطاره:

"قطار الليالي، قطار السنين الخوالي،

الى أين تمضي بركابك الميتين؟".

عثرت على صديقي بين الحشد في رصيف الانتظار كطائر ضائع، كما عرفته جيدا في شارع السعدون ايام المطاردة، وفي معارك الجبال يوم تقاسمنا سفوح الجبال نحن» الاخوة الاعداء"ويوم تقاسمنا المنفى الايراني والرغيف الافغاني والتسكع في شوارع طهران، وكان شريكا في رواياتي حتى انني لم أعد أعرف: هل هو شخصية روائية متخيلة أم حقيقية؟ من هو الحقيقي ومن هو المتخيل؟

فتحت النافذة في منزله في الغبش السويدي الازرق المتوهج، لكن بدا لي أن مضيفاً مضاءً بالفوانيس يشع من بعيد، ومحطة قطار المعقل تحت المطر، ورأيت راهبا يهرب من الكنيسة، وسرب مدرعات يعبر جسر الشلامجة وقد حفرته القنابل، وأشجاراً تحترق. ماذا يريد الماضي يلاحقنا بهداياه؟

سمعته يقول ضاحكا من المطبخ وهو يعد القهوة:

" ان تحلم بوطن، أفضل من أن تراه".

قلت:

" كما فعلت ايز ابيل الليندي في كتابها: «بلدي المخترع ". عندما لا يكون الوطن صديقاً، ولا مكاناً آمنا، فمن الأفضل اختراعه ومن غير المعقول ألا تكون في وطن ولا مستقراً في منفى.

٣٢

ليل اسكندنافي ابيض وصريح برائحة أزهار برية تحت المطر الرذاذي. ربيع مبكر رغم ان ثلوج العام الماضي تلوح فوق قمم الجبال. تجلس ابنتي جواري هادئة وتحدثني عن زميل في الكلية عربي تعرض لإهانة من صديقة إنكليزية طالبة تدرس معهم وصفته بعبارة» أنت في النهاية ليس أكثر من عربي». كاد أن يلتهم كل شيء ، زجاج النوافذ والحيطان ونفسه. رد الفعل العنيف يعكس حجم توقعاته الكبيرة وكيف صار ينظر لنفسه بعيونها وزنجي فرانز فانون الذي أحدث الاستعمار انحرافاً وجودياً في نظرته لنفسه وللحياة، وصار يرى نفسه بعيون غيره تحول الى أسمر عربي مسلم صار يحلم أن يكون أوروبياً أو أمريكياً أبيض، أو يحكمه أمريكي لينقذه من دونيته أو يتزوج من شقراء، كما أن الأسود المنبوذ والمتوحش في السرديات الاستعمارية تحول الى العربي المسلم، والخطاب الاستعماري اليوم لم يتغير بل تغيرت الأقنعة، وفي الحالتين دونية الأسود ووحشية الأسمر، الأول بسبب اللون والثاني بسبب الهوية: الهدف واحد: الاستغلال والهيمنة والنهب واذا تطلب الأمر الإبادة العلنية بعد اختراع أرق القوانين لها في خطاب البربرية الحديثة.

٣٣

" في الضباب البني لفجر شتائي تدفق حشد على جسر لندن، حشد غفير، ما خطر لي أن الموت قد اباد مثل هذه الكثرة» *

الشاعر إليوت، قصيدة الأرض الخراب.

أكثر الألوان تعرض للقسوة والظلم والتأويل هو الرمادي، حتى علم النفس شارك في ذلك ووصف الرمادي بلون الحياد والحزن والكآبة والمأساة لأنه ليس بالأبيض ولا الأسود، لكنه أصاب في وصفه كمنقذ من فوضى العالم.

لا يمكن القبض على الرمادي لأن سرعته تزداد كلما كثر عدد مطارديه كجواد بري نافر، حتى لو تبعته» كلاب الأثر» الى حافات الأرض. مفسرو الأحلام دخلوا على الخط، قالوا إن الرمادي في الحلم إنذار بوقوع خطر، كيف يكون الحيادي خطراً؟ يقولون إن الرمادي لا يثير الانتباه، لكنه يشرق مع الألوان الفاتحة، وهي صفة الأعزل الذي يُشرق في حضور نقي، لكنه المنسي وغير المرئي في الضجيج وينطفئ في حضور المعتم.

كان لون محطة القطار رمادياً ذلك النهار، كان لون الرصيف رمادياً ذلك الصباح ومعطفي رمادي، لماذا يحضر الرمادي في السفر؟

هو لون العزلة شرط عدم طلي المنزل به في كل مكان لكي لا تعم الكآبة، لأنه متقشف وزاهد وطفولي يحب العزلة وعزلته مضيئة وليخترقها من يريد: إما يحترق أو يضيء.

ليس لون الانزواء بل الهروب من الضجيج الى النشيج وهو يعيش في قلب الحياة. ميلان كونديرا الروائي قال إن الرمادي هو لون الحنين في رواية« الجهل» وهي فكرة محورية عنده، لكنه في قول آخر اعتبر البرتقالي هو لون الحنين:

" غيوم المغيب البرتقالية تضفي على كل شيء ألق الحنين، حتى المقصلة".

ليس الأسود الواضح لون الحضور، بل الرمادي المتعدد الغامض الرصين. هل الرمادي، إذن، لون أم إحساس؟ لا يمكن القبض على الرمادي لأنه التعدد والتشظي والبعثرة، لا يمضي في اتجاه وبُعد واحد كالأعزل والهامشي والمقصي، ليس لون السذاجة العارية وليس وقحاً، وحيد لكنها وحدة نجم مشع وعزلته عزلة شفق.

عن أي شيء أتكلم؟ عن الرمادي أم عن ماذا؟

هل أكذب أم أراوغ ولا أفصح؟ لماذا أفصح إذا كان الأمر خاصاً؟ هل الرمادي أنا أم نحن الابيض والاسود؟ لا أظن الرمادي يولد من الأبيض والأسود كما تقول كتب تعليم الرسم، يمكن أن ينبثق في أية لحظة من حديقة أو موعد أو موسيقى، أو من وداع وربما من أغنية أو سماع نوبة بكاء متخيَّل لطفل يبكي في الخطوط الأمامية في الحرب، من مزج الدخان وأحاسيس القلب ولون الغسق المحترق والأسلاك الشائكة، لون براءة جريحة.

عازف البيانو غلين غولد وصف قطعة موسيقية بالقول: مدىً ...أبدي من الطيف الرمادي،

تترك الطابع الاستثنائي لكون يمتد بلا نهاية“.

أكثر الكتب قراءة في سجن غوانتنامو رواية:

« ٥٠ ظلاً للرمادي» للروائية البريطانية أي. أل جيمس، وقد بيع منها أكثر من مئة مليون نسخة، وتحولت الى فيلم و أبعد من ذلك استغلت الشركات التجارية اللون الرمادي بوضع اعلانات للشاي والتايت ودب من القماش الرمادي وصبغ الشعر مستفيدة من النجاح الهائل للفيلم الذي يصور مشاهد حسية وهي روايتها الأولى.

كيف إذن يكون الرمادي ليس من الألوان الحارة وليس من

الألوان الأساسية، وليس لوناً بنفسه بل هو مزج الأبيض والأسود؟

هوية الرمادي في كونه يخلق هويته من التعدد، هو ولادة و انبثاق وخلق وليس لوناً جاهزاً، وخارج التصنيف والاختزال.

هو أيضاً...موقف. يقلب فرح المقاولين والمغني الأخير يوم تهدأ الأيام من عربدتها ويشرق الصحو المضيء وينتهي حفل الزور. في الغرب الرمادي لون الكآبة والحزن والرصانة قبل أن يصبح لون الأزياء

وصبغ الشعر و أثاث المنازل، وفي الصور تبدو المدن في الحروب بلون رمادي عميق.

لكن الهندوس عبدوه كلون مقدس، ربما عدم وضوح الرمادي يجعله عصيّاً على التفسير وهو في الحقيقة لا يُفسر، اللامفسر هو الأبهى. يترك أثراً حسياً ومشاعر صفاء في مكان نظيف ويختفي في الظلام. عند محمود درويش يكون الأمر مختلفاً:

" الرمادي اعتراف، والسماء الآن ترتدَ عن الشارع،

والبحر، ولا تدخل في شيء، ولا تخرج في شيء،

ولا تعترفين،

ساعتي سقطت في الماء الرمادي،

فلم أذهب الى موعدك الساطع...؟

كوني حائطي كي أعبر".

لكل واحد منا لونه الرمادي، أحياناً يسقط اللون الرمادي في أي وقت كسقوط أوراق الخريف وضوء القمر فوق أنثى تستحم قرب نبع ماء وشجرة منعزلة.

الرمادي طفل مشرد تربكه الهدية ويبكي في عزلة الليل فوق رصيف بارد عندما يعود جريحاً كجياد الحرب الجريحة تبكي في عزلة الليل تحت المطر بصمت وقربها فرح الفرسان المنتصرين.

هو أسد في قفص يحلم بالغابات والبراري والأمطاروالصيد. هو أعزل يتسول الوقت قبل أن ترفع السفينة حبال القلوس وتقرع أجراس الرحيل نحو الرمادي الأبدي: كيف إذا التقى هؤلاء؟ طفل واعزل واسد في قفص وهم في منفى ولا أحد في مكانه الحقيقي؟

ليس الرمادي محايداً، إنه لون الارتباك كطفل يتيم تربكه هدية مباغتة في محطة قطار.

٣٤

«خرج البدوي"

- الطريقة الوحيدة لكشف أكاذيب السياسيين هي رواية قصصنا*خوان غابريل فاسكيز، روائي كولومبي.

عندما اخرج كل صباح من المنزل، تقول لي ابنتي، ضاحكةً:

" لا تنس خرج البدوي معك". خرج البدوي هو الكيس الذي يحمله البدوي سابقاً عند النزول الى المدينة ويضع فيه كل ما يلتقطه في الشوارع، لكنها هنا تعني عبارة للروائي ماريا فارغاس يوسا حامل نوبل الذي قال:

" على الروائي أن يكون كحامل خرج البدوي ، يلتقط كل ما يصادفه في الحياة من نظرات وروائح وكسر الزجاج والأمشاط والمرايا والتجارب"، ثم يعود لتنظيم هذه الأشياء والوقائع المبعثرة. النصوص الكبيرة ليست في الكتب فحسب بل الحياة كل لحظة تنتج ملايين النصوص كزهور تفتحت في الليل تحت جدار متهدم، عشب

بين الصخور، عش طائر، مجرى ماء منعزل، التفاتة في شارع، حوار من عابري طريق، نجمة الصباح او نجمة الراعي التي نساها العالم هذه الايام مع نجمة المساء لان أحداً لم يعد يرفع رأسه الى السماء والاغلبية غارقة في الهواتف.

ما في أحد ينظر هذه الأيام صوب القمر حتى ثعالب البساتين التي كانت خلفية ليلنا اختفت ولم يعد أحد ينتظر أحداً: الكل في هجرة من الذات.

الشاعر لوتريامون كتب قصيدة عندما رأى ماكنة خياطة وبالقرب منها قبعة نسائية وتلك هي شعرية المفارقة. الشاعر أرثر رامبو كتب قصيدة عندما رأى دراجة هوائية صدئة للأطفال تحت المطر في حديقة.

مرة شاهدت في الحرب خوذة جندي مرمية في عراء ربيعي من معارك سابقة لكن المذهل ان الزهور برعمت من تراب الخوذة وفي مشهد آخر جنود قتلى وحولهم العصافير تتشاكس حول بركة ماء ومن ساعة أحدهم الالكترونية تنبثق موسيقى عيد الميلاد: حفل عيد ميلاد الموتى.

هناك من يحاول ادهاشنا بغرائبية تثير السخرية حتى بلا رصانة السخرية وما ينطبق على الروائي ينطبق على المثقف المنغمس في

الحياة اليومية. لا كتابة حقيقية بلا تجارب حقيقية موجعة: الوجع محفز ومحرض على الكتابة لأنه يحرك كل طاقة الجسد، عكس الألم الموضعي العابر.

يمكننا تعلم الكتابة من نصوص الحياة أكثر من الكتب والذين يقضون حياتهم بحثاً عن نصوص كبيرة ملهمة لن يجدوها، هناك فارق كبير بين حنجرة المغني وبين استعارة صوته، يمكن استعارة صوت المغني لكن من المستحيل استعارة نحيب القلب. الحياة مجموعة تفاصيل وكثير من التفاصيل التي تركناها خلفنا في منعطف ما، كان يجب أن تشكّل حياتنا ومصيرنا بشكل مختلف الى الأبد، وفي حالات صار درب العودة مستحيلاً. لقد نسيت الليلة أوغست بري لأنني لم أصل الى نتيجة ولا هو ولا شخصيته المخترعة أوين بريك.

٣٥

« الخجل من القمر والغيوم والصمت والأزهار ".

- اذا مت، فدعوا الشرفة مفتوحة. * لوركا.

بعد ان تم اخراج أوين بريك من الحفرة من قبل الرقيب، يطلب منه التوجه نحو المدينة للبحث عن الراوي مؤلف قصة الحرب وقتله لكن بريك لا يعرف اسم المدينة. يقول له الرقيب اسم البلدة:» وينليغتون» ويشير باتجاه صباح الضباب الكثيف» ستكون هناك قرابة الظهر». يسأل بريك» أعليّ أن أسير؟» يقول له الرقيب» كنت أود أن أُقلّك لو لم أكن ذاهباً في اتجاه آخر». عليه قطع اثني عشر ميلاً بمعدة خاوية، لذلك قررت تركه يمضي في ضباب الصباح الكثيف وقراءة قصة مختلفة رواية « هيجان» للروائي جورج لويس دي فيلا لونغا عن مقتل لوركا. هل فكر قاتل لوركا في ان قتل الشاعر سيقتل فكرة الحرية؟ ماذا عن ذبح الشاعر محمود البريكان من أجل

سرقة تافهة؟ هل نحن أمام قاتل متسلسل متغير الأسماء؟

ماذا يقول قاتل الشاعر الغرناطي المجرم فونسيكا المتواري من العار؟ يقول أخذناه الى حقل مهجور الى مقبرة قرب مطحنة مهجورة، فرح لوركا لغياب القمر لأنه يخجل منه لكن القمر يشرق ويغيب من بين الضباب من فوق جبال لاسيرا التي تغنى بها. القمر فوق جبال لا سيرا جعل لوركا المكبل اليدين يخجل من ضوء القمر. قال لوركا الطفل للقتلة:

" أنا لا أكذب أبداً تحت ضوء القمر".

عندما عرف أن اعدامه مؤكد سأل: أين سيتم ذلك؟"

" في المقبرة".

" لا أحب ذلك لأن المقابر للازهار والصمت والغيوم".

وأضاف:

" لا أحب الموت تحت ضوء القمر، أنا أخجل من القمر".

عاد يسأل:

" هل سيكون مؤلماً؟"

طفل يتكلم مع قتلة و أنذال. قال لوركا مرة» في عروقي دم عربي» وهي العبارة نفسها التي قالها كازنتزاكي. طلبوا منه أن يركض في الحقل وعيناه على قمر مشرق من فوق جبال لاسيرا التي أحبها، سأل:

" في أي اتجاه أركض؟".

" أركض كما تريد لكن بخط مستقيم".

هذه مساحة حرية القتلة أن يختار الاتجاه للموت، وخلفه مفرزة الاعدام. أمامه غابة لافو انت فاكروس مكان ولادته، ركض لوركا مرتبكاً خجلاً من قمر مشرق من جبال لاسيرا ومن أزهار وصمت المقبرة ومن الغيوم، وعندما أطلقوا النار عليه سقط، يقول القاتل، بحسب رو اية» هيجان» للكاتب خوزيه لويس التي اعتمد فيها على وثائق سرية وشهادات القتلة والشهود واعتر افات راهبة مطلعة، إن لوركا قال كطفل:

" أنا ما زلت حياً".

أطلق القاتل فونسيكا النار على الشاعر، انتفض جسده لكنه نظر النظرة الأخيرة نحو قمر لاسيرا، لكن القمر غاب في الضباب. غاب القمر خجلاً من الجريمة كي يجنب لوركا خجل الطفل من هذا الموت العاري. قبل اغتياله توقع في قصيدة انه سيُقتل:

" فتشوا المقاهي والمقابر والكنائس،

فتحوا البراميل والخز انات".

مات المغني الغرناطي لكن لم تمت الأغنية، تحولت مقبرة الموت الى مزار، ذهب القتلة الى عار التاريخ،

وعاد القمر يشرق فوق الجبال، ولم تتوقف الأزهار والغيوم عن الحياة. لم تغلق الشرفة بعد موت لوركا وظلت مفتوحة، كما ستظل يوماً مفتوحةً لو اغتيل لوركا آخر في أي مكان في العالم، لا تتوقف سلالة القتلة عن التناسل، ولا سلالة الاطفال الكبار عن التناسل، تتغير أسماء القتلة والقتلى ولم ولن يتغير اسم القضية: القاتل واحد حتى لو تبدلت الأسماء، وتبدلت طرق الاغتيال. لكي تقتل انساناً، سواء كان شاعرا أم غير شاعر، لا يعني دائما إطلاق الرصاص عليه، بل يكفي لتخون أحلامه ومصير هؤلاء الفضح كما حدث مع قاتل لوركا.

يمكن قتل المغني، لكن كيف تُقتل الأغنية ولو بكل رصاص العالم؟ ظلت شرفة لوركا مفتوحة الى الأبد وظل قاتله هارباً كل تاريخ البشرية الى الأبد: هذه عدالة الحياة. لوركا يخجل من ضوء القمر والغيوم والصمت والازهار وهو في الطريق الى الموت، وهناك من لا يخجل بل يتباهى بالجريمة: مهمة شاقة أن تكون انساناً. عدت

الى أوين بريك بعد أن صعد الرقيب السيارة وجلس خلف المقود وأدار المحرك مودعاً بريك بهذه الكلمات:

« كن متماسكاً هناك أيها الجندي. لا أرى فيك سيماء القاتل الى هذه الدرجة، لكن أنّى لي أن أعلم؟ فلم أكن مرة على صواب في أي شيء».

٣٦

-‹يبدولي في النهاية أنني سأسقط، ميتا، تحت وطأة الفرح›

- كافكا الى ميلينا.

«سرفانتس، ديكنز، كافكا، بيكيت، مونتين؟
هؤلاء وغيرهم من الكتاب وكثير غيرهم يسكنونني على الدوام واظن انهم سيبقون يسكنونني دوما». بول أوستر.

الذي رسم صورة سوداوية لكافكا هو النصاب ماكس برود الذي كان صديق كافكا في براغ، ولم يكن كافكا قد نشر رواية في حياته وكان بعيدا عن الوسط الادبي وقبل وفاته إدعى ماكس برود إن كافكا طلب منه حرق رواياته لكنه لم يفعل، لكن ميلان كونديرا في كتابين له» خيانة الوصايا، و» فن الرواية» دحض كل أكاذيب ماكس برود وكشف حقيقته ويستغرب كونديرا كيف ان هذا النصاب استطاع تسويق أكبر كذبة في التاريخ الثقافي لم تتوقف عند الادعاء بحرق روايات كافكا بل رسم له صورة سوداوية كرجل مريض وعصابي وسوداوي تنسجم مع حاخام يهودي منعزل؟ في حين ان رسائل كافكا

مع ميلينا مفعة بالحب والحنان والفرح، وظلت ميلينا معه حتى اللحظة الاخيرة وهو ينزف دماً من مرضه الصدري رغم محاولاته ابعادها عنه وهي كاتبة ومثقفة نمساوية وكانت شديدة الثقة بموهبة كافكا المجهول من نخب الادب ومتعلقة به وببراءته. كما انه كان يقرأ بعض فصول روايته الشهيرة» المحاكمة» في حلقة أصدقاء وهو يضحك. لكن ماكس برود الصهيوني رسم صورة كافكا كنبي يهودي غامض ونبوئي وصاحب رسالة دينية وهو ما كان سيجعل كافكا يستغرق في الضحك، والأخطر من ذلك ان النقاد العرب تبنوا رؤية ماكس برود عن ميول صهيونية في كافكا مع ان كل رواياته لا علاقة لها بذلك. يتساءل كونديرا: لو كان كافكا راغبا في حرق رواياته، فلن يكلف الأمر عود ثقاب، لكن طلب حرق بعض كتابات غير مكتملة؟

خلال مذبحة ديرياسين في فلسطين أرسل ماكس برود رسالة الى الروائي الألماني هيرمان هيسه للتضامن مع العصابات الصهيونية لكن هيرمان رفض ذلك بقوة. مات ماكس برود ودفن في حيفا بعد ان باع مخطوطات كافكا في المزاد العلني. لكن الصورة المزيفة التي رسمها لكافكا والتي ما تزال تُنشر كغلاف على رواياته، مستمرة لأن الكذبة الكبيرة تستمر طويلاً.

مرة كتبت مقالاً عن كافكا بعنوان « لعنة كافكا» نشرته صحف ومواقع عربية نسف الصورة الشائعة عنه، حتى أن الكاتب علاء

اللامي الذي كان يتطير من قراءة كافكا عندما قرأ المقال وقدمت له مصادر لا تقبل الشك عن زيف تلفيقات ماكس برود، كتب مقالاً بعنوان «محاولة تكميلية لمساهمة حمزة الحسن:

الصورة النمطية الزائفة لفرانز كافكا والقراءات اللاتاريخية لرسائله الشخصية» في جريدة القدس العربي، ولم يتوقف عند ذلك بل وضع كتاباً بعنوان» كافكا الآخر“ تعرض فيه لمقالنا مرة أخرى وكيف ان المقال حفزه على تاليف الكتاب. يتساءل ميلان كونديرا:»كيف استطاع كاتب فاشل ونصاب من رسم ملامح زائفة لكافكا بلا فحص ولا تدقيق؟“

عندنا أكثر من ماكس برود و أقل كفاءة منه، وهؤلاء على استعداد فوري لصناعة صورة مزيفة عن أي كاتب يختلف معهم حتى بلا معرفة مباشرة ومن دون قراءة جادة وبلا قراءة أيضاً.

في رواية رجل في الظلام يحاول أوين بريك الشخصية المتخيلة قتل الراوي، لكن ماكس برد حاول قتل كافكا عندما صنع له صورة مزيفة عن شخص عصابي غامض متوتر كنبي توراتي قادم.

٣٧

« إنتقامي الوحيد أن أروي ما حدث“

عبارة إكتور آباد فاسيوليسني الكولومبي في روايته: « النسيان“

- وجهتك ليست مكاناً تصل إليه، إنما هي طريقة جديدة ترى بها الأشياء. هنري ميلر، روائي أمريكي.

الأشجار خلف النافذة في الضباب الرمادي، و أنا أحب الضباب فكيف إذا كان رمادياً؟ تجفل الغزلان من قلب الضباب، خلفي غابة تأتي الغزلان في الفجر

تبحث عن بقايا الأطعمة في الحاويات عندما يهطل الثلج ويغطي العشب.

كلبة ابنتي من كلاب الرعي، تهدد بالانقضاض وتحلم بالمطاردة، وقطنا المغربي يتسكع في الشوارع، وحده المتسكع من بين القطط لا ينقصه غير وضع يديه خلف ظهره مثلي ويمشي.

لماذا القط وحده يتسكع في الشوارع، ويعود آخر الليل مجروحا

وينام في فراشي؟ لا نملك غير التسكع؟ الأشجار في الضباب الرمادي أجمل من شروق الشمس إذا كانت ستشرق، والقط نائم في فراشي ربما يحلم، و أنا مثل صياد عاد من البحر، لكن مشهد الأشجار صيد، والرمادي ليس لوناً لكنه المنسي، والأعزل. كل شيء سيزول الآن، الضباب الرمادي، الغزلان تهرب من سقوط الضوء، الأشجار عارية ستبقى، والسفينة في الميناء راسية تطلق صفارتها الأخيرة هنا على حافة القطب الشمالي. حان الوقت للقهوة وكتابة الفصل الأخير من الرو اية. تختفي الغابة والبحر والغزلان وتحل الذكريات، ماذا تريد الذكريات؟ لا زمان هنا ولا مكان، غير ضجة الغزلان في الغابة والقط وكلبة الراعي، وصور الجدران والحرب القديمة والذكريات، وسقوط الثلج، ونار الموقد الحجري. انتبهت الآن أن لون القط رمادي، في الظلام تتشابه الألوان، يلوي ذراعه حولي وينام. من قال إن القط خائن؟

٣٨

«غرفة صغيرة تضيء العالم"

- لطالما دفعت بي حاجتي إلى الحنان،لالتماسه عند أشخاص كانوا يحاولون تدميري ـ فان كوخ.

قررت ذات ليلة الخروج من غرفة أوغست بريل المشؤومة الى غرفة الرسام فان كوخ التي على بؤسها أضاءت العالم. تأملت لوحة غرفة نوم الرسام الهولندي فان كوخ في بلدة آريل في الجنوب الفرنسي عام ١٨٨٨، واختارها لانها تشتهر بحقول عباد الشمس والطبيعة المفتوحة وضوء النهار الغامر الذي كان يشربه قبل أن يتنفسه ويراه.

من الصعب تخيل ان هذه الغرفة التي تبدو في اللوحة مشرقة الألوان ونافذتها باللون الأصفر المشع لونه المفضل كغرفة طفل فقير يعشق الالوان، كانت في الو اقع غرفة بائسة استأجرها من سيدة عجوززوجها صاحب مقهى، ولم يتمكن من تسديد ثمنها، وكان يدفع لوحاته كثمن للإيجار لأن لوحاته لم تكن تباع، ويعتمد على

شقيقه ثيو بدعمه بالمال القليل.

من الصعب أكثر تخيل أن عمارات وفيللات وبيوتاً وغرفاً تلاشت واختفت لكن غرفة اللوحة تضيء متاحف فرنسا وصالات وبيوت العالم مستنسخة، وهذه قوة الفن.كل هذه الاشر اقات والالوان البهيجة ليست في الغرفة، التي كانت الريح الباردة تخترقها ويغلق النافذة المحطمة بلوحاته الجميلة ويعبث بها المطر، بل كل هذا الفيض في اللوحة وفي أغلب لوحاته ينبع من أعماق فان كوخ، وهو أمر يستعصي على فهم عامة الناس التي تحكم على هذا النموذج بمعايير عامة في حين تختلف تماماً وعالم خاص وذهنية خاصة ورؤية للحياة مختلفة. من أين يخرج هذا الألق لشخص منعزل وكئيب ووحيد؟

هذا النوع من الشخصيات النادرة يطلق عليه في تصنيف الشخصيات الآن بـ:

" أي إن أف جي introversion intuition,fellling,judgment الانطواء والحدس والمشاعر والاحكام وهي شخصية ودودة ومحبة ومتضامنة لكنها أكثر الشخصيات معاناة لا تعرف الشر وتصدم به وتتمتع بجمال داخلي آسر لا تدركه بل تعيشه ببراءة برية، الجمال غير المدرك لنفسه كالزهور والاطفال والنجوم. شخصية نادرة حسب

علماء النفس في تصنيف الشخصيات في كلا الجنسين وتحتاج الى حضورمشابه لكي تشرق لكنها تنطوي مع مخلوقات معتمة متبجحة متصنعة ومن هنا تساء عزلتها.

ليست عزلة نابعة عن ترفع او شر بل عن تحاشي وتجنب واحباطات. هذه الشخصية رغم ما تنطوي عليه من عزلة لكنها منفتحة وطليقة ومضيئة من الداخل وعاجزة عن فهم مساوئ وألاعيب البشر،

شخصية ذكية تدرك العالم من خلال الأحاسيس وليس إدراكاً عقلياً بارداً، لذلك تتقاطع مع المجتمع ويساء فهمها، وعزلتها ليست نابعة من كراهية ونفوروتفوق بل من تحاشي كل ما يدنس طبيعتها النقية وهو ما حدث لفان كوخ في هذه الغرفة.

يأتي أطفال بلدة آريل الى الشارع منتصف الليل لرمي النافذة بالحجارة والصراخ عبر نافذة غرفة المجنون كما أطلقوا عليه في لحظة انشغاله بالرسم كهروب من و اقع مظلم وخلق العالم الموازي المشرق.

جاء صديقه الرسام بول غوغان وقضى بضعة أيام، لكنه رحل بعد متاعب سوء تفاهم بين شخصين لا يمكن ان يلتقيان في غرفة ضيقة وحقيرة، وغادر غوغان الى جزر تاهيتي وعاش بين اقوام

بدائية تاركا الحضارة الغربية وفرنسا خلف ظهره وبنوا له كوخاً من القصب والعشب وتزوج منهم، ورسم الحياة اليومية لسكان الجزيرة التي تزين متاحف فرنسا اليوم وتباع كلوحات فان كوخ بملايين الدولارات وماتا فقيرين.

من الصعب على قراء الأدب الغربي فهم هذه التفاصيل المتناثرة التي لا تبدو روابط بينها لكن هذا هو الأدب الاسكندنافي المختلف تماما عن الأدب الغربي ومركزيته الأوروبية المتعالية. وحدة النص في البعثرة والتسلسل غير موجود والشخصية غير محددة الملامح والاحداث بلا منطق والوحدة في التعدد وليست هناك قصة واحدة تروى لان الحياة نفسها مصممة على التعدد والتشظي والتنوع والذاكرة والخيال والروائي حامل خرج بدوي يضع فيه كل ما يلتقطه من تجارب ووثائق وصحف ونظرات واصوات وروائح.

دخل هذه الغرفة الممثل أنتوني كوين لتصوير فيلم عن فان كوخ وجلس على الكرسي المخلّع الواضح في اللوحة الذي صار أشهر وأغلى كرسي في التاريخ من خلال لوحة تحمل الاسم نفسه، وانهار كوين في البكاء عندما تذكر تعاسة حياة فان كوخ.

الروائي البيروفي، البيرو، ماريا فارغاس يوسا، حامل نوبل، جاء الى هذا المكان لجمع مادته الروائية عن غوغان وكوخ، لكنه لم

يجد» المنزل الأصفر» الذي تتواجد فيه غرفة فان كوخ، وهناك لوحة تحمل عنوان: المنزل الأصفر، وكان قد تعرض للقصف في الحرب العالمية الثانية، لكن ماريا يوسا تجول في زقاق مجاور أطلق عليه» زقاق الخطيئة» الذي كانت النادلة راحيل تعمل فيه وتعلق بها فان كوخ، ثم اكتشف فان كوخ أنها لعوب ورخيصة ومتلاعبة وكانت ضربة عنيفة في ذروة الفرح والانهاك الجسدي، كانت من أسباب كارثة انتحاره.

لم تتوقف المصائب عند هذا الحد بل اشتكى أهل البلدة للشرطة من هذا المجنون وحجز في مصحة سان ريمي ورسم لوحات مدهشة عنها، وتحتفل بلدة آريل كل عام بتاريخ حجزه منذ ذلك التاريخ بفان كوخ كاعتذار متأخر له ميتاً.خرج من مصح سان رمي وعاد الى الغرفة واهدى خمس لوحات لصاحبة الغرفة وزوجها ولم يكن يعرف أنهما من أبلغا الشرطة به وصارا من الاثرياء بعد وفاته.

ليست الامكنة والظروف ما تصنع كل البشر، هناك أشخاص يحولون غرفاً بائسة الى عالم حي وخالد، الانسان ليس رهينة ظروفه في كل الاحوال، بل صانع وخالق ظروفه، وفان كوخ وغيره أوضح الأمثلة.

غرفة فان كوخ التي تهدمت، لكنها حلم بشري في أن يكون العالم

يشبهها، لقد حفر كوخ المار الهائل خطواته في الحجارة وذاكرة البشرية لا في الريح. الرصاصة التي أطلقها فان كوخ على رأسه ليست هي الرصاصة التي يحاول أوين بريك اطلاقها على راوي قصة الحرب لأن هذه القصة في رؤوس كثيرة.

٣٩

المحارب في خنادق موحلة يحتاج الى النوم والحلم بوسادة نظيفة وشرشف أبيض وفراش ناعم وضوء هادئ وطعام لذيذ وثرثرة في شارع أو مقهى. لا أحد يعرف متعة الثرثرة في شارع مسالم ومساء طري غير المحارب ولا بهجة ضوء النو افذ الآمن في الليل، ولا طبول فرح تأتي من غابة بعيدة أو ضفة أخرى، ولا أحد يعرف سعادة وجه طفل في سرير النعاس، وحدهم من عاشوا المحن يعرفون قيمة الفرح البشري في التفاصيل الصغيرة، غالباً ما يقول صديق نرويجي:

" أنت تتمتع بالحياة أفضل منا، لأنك رأيت وجه الحياة القبيح وتعرف معنى السعادة في تفاصيل لا نحفل بها."

ضوء في مساء هادئ، مصابيح شارع مسالم، شموع مضاءة، عربة أطفال تدفعها أم، عشب أو زهور ولدت في الليل.

كانت تجلس في الشرفة وتكتب أمام قمر يبزغ من بين الأشجار

تحت ضوء ناعس، وأنا أعد القهوة وأمسح بقايا المائدة و أفرغ الثلاجة من الطعام القديم،

والذاكرة من صور خاطئة تسللت من صدع في البراءة. الاخطاء الكبيرة عادة تتسلل من هذا الصدع. أفكر في شموع جديدة في الشكل واللون لمساء جديد ومسح الغبار عن زجاج النو افذ والذاكرة وفتحها على بحر بعيد لأقرأ لها قصيدة سان جون بيرس:

" ضيقة هي المراكب،

ضيق سريرنا،

ليدخل البحر من النو افذ،

للبحر وحده سنقول

كم كنا غرباء في أعياد المدينة".

مستغرقة في كتابة سيرة: "سنوات السوء» وغارقة في الوثائق والصور والرسائل والمذكرات وكل ما لا يعرفه أحد، قلت:» ما الذي يجعلك منهمكة بكل هذا الأرق؟".

" في هذا الكتاب ستولد من رحمي".

" لا يحتاج الأمر الى كتاب لكي أولد من جديد،

فقط اقتربي أكثر».

المعركة مستمرة حول مساء هادئ، بين الكتابة وبين البحر، بين ضوء الشموع وعناد الأنثى. ليذهب بول أوستر الى الجحيم مع أوغست بريل.

٤٠

«الراقصة والهارب"

خلال الحملة على اليسار والمثقفين المستقلين والشيوعيين، وجدت نفسي كالعادة مطلوباً دون أن اكون طرفاً في صراع أحزاب. كنت ساخطا على الجميع، كما اليوم، وطريد القريتين، لكن لا مجال للحياد في سلطة ومجتمع محارب.

أنا في كل الأحوال مطلوب في أية حملة دون أن أعرف السبب، ولماذا يجب أن نعرف السبب إذا كانوا هم يعرفون؟ في السجن قلت برجاء لرجال الامن:

" هل يمكن أن أعرف السبب؟"

فاندلعت ضحكات ساخرة وقال أحدهم ضاحكاً:

" يريد يعرف السبب".

كما لو طالبت بمعجزة لأن الانسان يصبح مُلكية عامة لا علاقة لمصيره به ولان السؤال يضعك على قدم المساواة مع هؤلاء في مكان لا تطرح الضحية فيه اسئلة بل تجيب.

قبل ذلك عثرت مصادفةً على مأوى ليلة واحدة في ضيافة راقصة في ملهى ألف ليلة وليلة في شارع السعدون، أعرفها جيداً وهي هاربة منذ سنوات الى بغداد وغيرت الاسم والشكل وتعمل في هذا الملهى الليلي وكنت هارباً كالعادة بتهمة المشي على الرصيف الأيسر بتعبير شارلي شابلن، وكنت قد تسرحت قبل أيام من الجيش بعد سبع سنوات في حرب الجبال، تخيل المكافأة من الحرب الى المطاردة كما لو أنني شخصية ريتشارد كامبل في مسلسل الهارب الأمريكي المطلوب للعدالة وهو بريء. الحوار الذي جرى بيننا بعد غلق الملهى والانطلاق بسيارتها في شوارع بغداد تحت المطر، وفي الشقة في الكرادة الشرقية هو نبوءة بأحداث كثيرة وقعت، ومن تلك الليلة تيقنت أن الراقصات أكثر واقعية ومعلومات من وسائل الإعلام ومن أوهام المثقفين ومراكز الأبحاث نظراً لنوعية الزبائن وهم خليط من رجال أمن وضباط ومخابرات وقادة ومسؤولين، ولا ننسى هنا أن راقصة كانت قد عرفت ساعة الصفر في الانقلاب على الزعيم عبد الكريم قاسم عن طريق ضابط عشيق متوله قبل ليلة واحدة من الانقلاب الدموي في حين كُبس « الثوريون» في سراويل النوم الى السجون والمشانق وغرف التعذيب وقطار الموت.

ظهران» المثقف الثوري» الذي يشم الخطر على مبعدة أميال، لا يشم شيئاً لأنه ببغاء ملقن في قفص، والتلقين والتوقع أمران

متناقضان. سرديات المهمشين ومن يعيشون على الحافات لا يهتم بها المؤرخون ولا غيرهم مع انها تروي التاريخ المخفي غير المروي - التاريخ من الأسفل وليس سطح الو اقع المزور ومن الوثائق. قالت في الشقة ضاحكةً:

" تساوينا".

قلت بتسليم العاجز والمضطر:

" تماماً، أنت هاربة من السلطة الاجتماعية، و أنا هارب من السلطة السياسية، انت ترقصين في الملهى للإغواء، و أنا ارقص على الأرصفة من الخوف، لم أعرف اسمك الجديد؟"

"صوفيا".

كان اسمها الأصلي أجمل لكني قلت:

" تشرفنا".

شعرت كما لو أنني أحد شخوص نجيب محفوظ في بنسيون رو اية «ميرامار" وليس شخصاً حقيقياً، لكن ما هو الفارق تلك الايام بين الو اقعي والمتخيل، بعد أن تحولنا الى ظلال هاربة تبحث عن جدران؟

كنا في زمن كانت هناك بقايا قيم ومبادئ و«حدود» أخلاقية

وطبيعية حتى عند راقصات الملاهي الهاربات. الصورة النمطية للانسان في الادب وفي الحياة لم تعد مقبولة لان الانسان منجم صفات وليس حتماً يكون الطبيب شريفاً والقاضي نزيهاً والمشرد سيئاً، ومن يحبسون الناس في إطار لا يعرفون غير السطح الظاهر.

هذا ما حذر منه ستاندال في رواية « صومعة بورما» ومخاطر التنميط Stereotype أو حبس الانسان في خانات وصفات محددة وغالباً متخيلة، ومن المعروف عن المفكر أدوارد سعيد اهتمامه بالغجر والسود والمشردين والهنود الحمر والمنفيين او من يعيشون على الحافات، حافات المدن وحافات التاريخ والواقع وحافات العدالة.

أمام انهيار اليوم وزمن الأقنعة، أتساءل مرات: ما الذي جعلها لا توشي بي؟

الثقة والأمان والكلمة والوعد كما أن الخطر والمعاناة والألم يخلق هوية مشتركة بين البشر المختلفين كركاب سفينة تغرق أو عمارة تحترق:

كلانا احتفظ بسر الآخر وعرفاناً بالجميل لم أبح باسمها يوما، وإيواء هارب في ذلك الزمان يكلف حياةً وكانت تضحية بلا مقابل.

٤١

تعمل ابنتي في أيام العطل في مهن عدة مؤقتة ومنها في دار للمسنين، لا توجد هنا التسمية الكريهة: دار العجزة، تروي لي حكايات غريبة عن هذه البيوت المرفهة، لا تروي فحسب بل تمتاز باناقة ودهاء وانتقاء المشهد، وتلح عليّ في كتابة رواية تقول ستكون شيقة وممتعة وغريبة في الدخول الى عالم هؤلاء وسبق للروائية إيزابيل الليندي أن كتبت رواية شيقة عن الحب في دار للمسنين: «العاشق الياباني» عن ثبات الأحاسيس وقوة الخيال رغم مرض الذاكرة، ونحن نميل الى تسطيح الانسان ونخرجه من الحياة بناء على قوالب في حين طاقته لا تنضب على الحب والتضحية حتى اليوم الأخير، وفي مجتمعنا لا يعبّر كبار السن عن مشاعرهم وعواطفهم كما لو أنهم صناديق مغلقة، في حين لا وجود لهذا الحبس في ثقافات أخرى.

تعمل في قسم مرضى الزهايمر والحالات المتأخرة في مصح أو مشفى لأن القانون هنا صارم جداً من ناحية التسريب الطبي عن حالة المرضى، ولا يمكن للملك نفسه الحصول على تقرير عن مريض، ولا رئيس الوزراء بلا قرار قضائي، الحياة الخاصة مقدسة

وكرامة الإنسان مصونة، وفي حال تسريب أو تشهير لغرض ما ستكون محكمة صارمة، ولو كان المتهم في الصين

ومطارداً ولو في قبو مغلق في غابة أو جحر في صحراء. لكنها تتجاوز ذكر الأسماء وهو أمر مقبول نوعاً ومريح وتتحدث عن حالات وهؤلاء على درجات مختلفة من فقدان الذاكرة:

تذكر مثلاً خلال فترة خفارتها الليلية حتى الصباح حالة مريضة، وتقول: بعد منتصف الليل بعمر التسعين والثلج يهطل وهي تتزين وتلبس أفضل فساتينها وتتعطر وعندما أسألها أين أنت ذاهبة؟ تقول فرحة: عندي موعد مع حبيبي شيتل وهو عادة يتأخر في المواعيد.

وتضيف:

عند السؤال من ابنها خلال أيام الزيارات وهي متباعدة،قال إن شيتل هو أول حب فاشل في حياة أمي، وقد حدثت هذه العلاقة قبل أكثر من نصف قرن وهو مات منذ سنوات لكنه حي في خيالها العميق. لا يوجد الواقع الحقيقي وهناك خلط تام بين الواقع والخيال وهو عالم مناسب للسرد الروائي كحالة أوغست بريل في خلق عوالم موازية.

حالة أخرى عن صياد أيائل يبحث في الغرفة عن بندقية صيد غير

موجودة وعن ملابس صيد وهمية، ويحاول الخروج للصيد منتصف الليل، وهؤلاء يمنع خروجهم حتى في النهار. يفقد هؤلاء مهارات لغوية وسلوكية كثيرة وعند الغروب، تقول، يصابون بتهيج يسمى متلازمة الغروب، نوع من الكآبة، مع حالات توهم وحتى تقمص.

أحد مرضاها تنتابه نوبة ويتصرف كالروائي همنغواي، وآخر يتحول الى راقص وعند التدقيق ظهر أنه حارس مرقص، ويتجاوز الأمر في حالات الى الشجن عندما تقول واحدة سأخرج لاستقبال أمي وهي في القطار الآن، والأم متوفاة منتصف القرن العشرين، حالة مريضة تدعي إنها راعية أبقاروعليها، الآن، في الفجر، حلب الأبقار.

لكن هناك لحظات صحو مفاجئة تنقطع بسرعة، أحد المرضى يتصرف أمامها كما لو أنها غير موجودة، يكشف جسده بالكامل ويقضي حاجته علناً ومن واجبها غسله وتنظيفه وتبديل ملابسه كطفل.

تعرف ابنتي أن روايتنا «سنوات الحريق» الصادرة عام ٢٠٠٠ تحدثت عن مأوى للمسنين لكن بلا زهايمر ومن زاوية مختلفة، والراوي شخص مشلول على عربة ويكتشف الجانب الخفي من عالم هؤلاء وهو عالم غريب واستثنائي، لكن وقائع مأوى ابنتي مختلفة ومغرية. حاول الروائي غابريل ماركيز في آخر رواية له: ذاكرة غانياتي

الحزينات» تصوير حالة رجل في التسعين يقضي ليلة عيد ميلاده في نزل خاص الى جوار فتاة حسناء دون لمس لكي يحلم جوارها، ويكشف غابريل بصراحة إن روايته تناص مع رواية الياباني ياسوناري كواباتا عبقري الرواية في:الجميلات النائمات"، لكن ماركيز كتب تحقيقاً صحافياً سريعاً، وهو نفسه أصيب بهذا المرض في سنواته الأخيرة، وروايته لم ترق الى تحفة ياسوناري الخالدة: إيغوشي في الجميلات النائمات الرجل الهرم يقضي يوماً في نزل خاص للشابات، من قواعده الاستلقاء الى جوار فتاة نائمة للحلم والتذكر فقط، وخلال تلك الساعات نعرف ماضيه وحروبه وجروحه وأوسمته لكن كل ذلك يتم جوار ملاك نائم، الحياة في توهجها وتوثبها وبالقرب منها عالم إيغوشي المشرف على الغروب، الرغبة والغضب والحياة في مواجهة موت وشيك.

أمام الثراء العاري والسهل الطليق، يحاول إيغوشي تذكر ماضيه ومن المعروف أن ياسوناري بعد حصوله نوبل انتحر على طريقة هارا كيري أو السيبوكو، غرز السيف في الأحشاء كما فعل زميله الروائي يوكيو ميشيما بعد حصوله نوبل أيضا في الطلب من صديق له بقطع رأسه في اليوم نفسه الذي أرسل رباعتيه الكبيرة: «بحر الخصوبة» الى الناشر في أربعة أجزاء: الجياد الهاربة، معبد الفجر، ثلوج الربيع، سقوط الملاك. في الجزء الاخير يأتي هوندا الشخصية المحورية في

الرباعية، بعد تجارب وخيبات الى المعبد ويسأل الكاهنة النصيحة، فتقول له العبارة الأخيرة الحكيمة: اعمل كما يمليه عليك قلبك".

المرة الأخيرة تحدثت مع ابنتي والريح تصفر في الخارج ونتف الثلج تتطاير وبعد حديث سألتها عن شخوص الأحلام الأخيرة فقالت بنبرة حزينة:

" العجوز العاشقة لم تتوقف عن التحضير لمواعيدها المتخيلة حتى اليوم الأخير وقد ماتت بفستان السهرة والموعد المتخيل".

وماذا يهم اذا كانت عاشت خيالها كو اقع وجهزت نفسها له؟ أين هو الو اقع حقاً؟ رغم الأسى لكن من الر ائع أن يموت الإنسان في حالة كهذه وهو على موعد حب حتى لو كان متخيلاً، لأنها عاشته سعيدة كو اقع ساعدها على العبور الأخير نحو الضوء المعتم.

عند هذه اللحظة كرهت أوغست بريل وعالمه الضيق وفكرت في غلق الكتاب والكف عن تتبع أوين بريك في بحثه عن مؤلف الحرب لاغتياله، لكني لم أفعل لسبب غير واضح، قد يكون الضجر أو الفضول وربما التماهي معه في حياة نتشارك في جزء منها، خلق عوالم موازية، توقع حرب أهلية، خلق شخصيات متخيلة ونقد الكتب والعيش مع ابنة وحيدة، والأحلام المتأخرة عن حياة بين الذاكرة والخيال.

٤٢

« الكتابة من المنطقة المحرمة "

«الأوغاد يشكلون ألذ جزء في الحكايات».

* إيزابيل الليندي. روائية تشيلية.

زعماء مافيا، العراب، الأب الكبير، محلات قمار، جنس، تجارة رقيق، مخدرات، تحالف العراب مع رجال ونساء السياسة والاعلام، شبكة معقدة من منازل خاصة وفنادق وصالات روليت، رجال دين، كازينوهات، قضاة ومدراء مصارف وشرطة، حراس وسيارات ومسدسات ودماء وغرف وخطف، خيانات علنية أنيقة من كل الأنواع، سطو قانوني على مصارف، وعاظ قتلة، زوجات وعشاق وأزواج قتلى. هذا هو عالم روايتنا» ولادة الذئب» موثقة بسجلات شرطة ومستشفيات ومنظمات حقوقية ومحاكم وشهادات، عن الواقع المخفي، والمخفي هو غير الواقع الظاهر، يقولون أين هو الواقع المخفي لأننا لا نراه، وهذه هي ثقافة الشعارات والجدران، الثقافة المرئية والمشهدية وليست ثقافة التحليل والتركيب والاكتشاف، والواقع المحجوب ليس معروضا للتناول بل هو

يُكتشف ويُرفع عنه النقاب، وهذه وظيفة الفن والروا ية والأدب لأن العمى العقلي لا يرى إلا ما يريد أن يرى.

هل نحن في بغداد؟ أم في فيلم العراب؟ أم في روا ية رجل في الظلام؟ لسنا أمام فيلم العراب روا ية ماريو بوزو الشهيرة،التي تحولت إلى فيلم من إخراج فرانسيس فورد وبطولة مارلون براندو وآل باتشينو عن عالم المافيا والجريمة وتحول مايكل كورليوني، قام بالدور آل باتشينو، إلى زعيم لا يرحم وعديم الشفقة في نيويورك، ولم يكن الروائي ماريو بوزو يحلم أن مخطوطته المهملة ستتحول الى أكبر فيلم يثير ضجة لا تنتهي ويصبح هو من الأثرياء وروا ية شهيرة. كان يكتب للتسلية كما أفعل، الآن.

كانت المافيا من احتكار النخبة الضيقة الحاكمة للدكتاتور في النظام السابق لكنها اليوم صارت ظاهرة في الأطراف، كانت من اختصاص الحاشية لكنها صارت اليوم اختصاص الحثالات وأرباب السوابق وحواشي رجال الدين.العراب العراقي وزعيم المافيا والأب الأكبر حسب جورج أورويل، وهي عناوين مختلفة للتحكم السياسي والمالي والاجتماعي، ليست منعزلة عن بعضها كما تكشف علاقة العراب، وزعيم المافيا العراقي بسياسيين نافذين أقرب الى زعيم مافيا نابولي مع أنه يفتقر عمقه وهيبة القاتل الذي فضحه الروائي روبرتو سافيانو في روا يته « غومورا“ عن خفايا مافيا نابولي وشبكة

علاقاتها الواسعة والخفية برجال السلطة والقضاة والمصارف وشركات الطيران والاعلام والكنائس والقساوسة لأن المافيا لا تعمل في الفراغ وهي تكره الفراغ، وحيثما وجد يجب أن يُملأ بالدم والجثث والرقيق والمال .

العراب العراقي تافه ورخيص وقاتل لا يثير غير القرف والاحتقار ولا يحرض سوى على الاشمئزاز، انه نذل وصغير وسطحي، ليس كزعيم مافيا كولومبي مثلا كان يقرأ لغابريل ماركيز، ولكن عرابنا صورة مجسمة تافهة وخطيرة لمرحلته الملتبسة، مرحلة ضياع الهويات و انقلاب الادوار وتفسخ القيم، وسوف تنتهي يوماً بلا أدنى شك الى الانهيار التام كما حدث مع المدن الآثمة في التاريخ سدوم وعمورة.

ما أن نشرت رواية غومورا حتى حدد زعيم المافيا موعداً لقتل سافيانو في ليلة عيد الميلاد لذلك اضطرت الدولة الايطالية لتوفير الحماية للكاتب، وتم وضعه في قبو سري محروس برجال أمن لسنوات ومع ذلك قال سافيانو في مقابلة من داخل القبو الأرضي إن المافيا قادرة على الوصول اليه لأنه يعرف دهاليزها وعلاقتها حتى مع الشرطة السرية، لكن زعيم المافيا أجل القتل لخلق صورة ملفقة عن الكاتب كرجل مريض وعصابي لخلق مناخ تقبل للقتل، ولكي تُخفى الأسرار الخطيرة التي كشفها سافيانو الذي وجد نفسه داخل شبكة المافيا دون أن يدري وما زال في القبو حتى اليوم ويتنقل متنكراً

بحراسة مشددة حتى وصل النرويج محروساً. لا أعتقد أن زعيم المافيا أو العراب العراقي يحمل مهابة القاتل والمجرم المحترف ومن الواضح أنه مجرم مسطح وغرائزي ومتخلف وفج، لأنه ابن مرحلة سياسية واجتماعية لا تنتج إلا هذه الأصناف المنحطة والغبية والمتوحشة، لكن هل كان هذا العراب الصغير والتافه يمكن أن يظهر في زمن الدكتاتورية؟ من المستحيل لعراب وزعيم مافيا الظهور في زمن دكتاتوري لسبب دقيق في أن الايديولوجيا، حسب الفيلسوف بول ريكور، تحجز الزمان وتحجز المكان، ولا تسمح بالمنافسة و أنصاف الحلول ولا بمساحات رمادية، ولا بقع تسويات بل الكل أو لا شيء، الدمج مع الايديولوجيا أو المحو الجسدي. أول عملية ابادة منظمة علنية كصيد الكلاب قام بها النظام السابق بداية السبعينات هي عملية قتل علنية لشقاوات - فتوات - الشوارع الخلفية والمقاهي والحانات في تطبيق واضح للمحو، وأما من قبل الاندماج فقد تم توظيفه في مؤسسة أمنية تتطابق مع المؤهلات.

لم يفعل النظام ذلك لحفظ الأمن، بل لأن الايديولوجيا لا تسمح بتجاور عصابتين، لا تسمح باقتسام المكان والزمان، إما الدمج أو المحو وهو سلوك عام مع الأحزاب المنافسة أيضاً. اليوم نحن أمام أكثر من ايديولوجيا وتم توظيف الدين لأغراض دنيئة من زنادقة بلا ضمير: اللص لا هوية له غير المصرف. بُنى الاستبداد تتجاوز النظام

السياسي الى مؤسسات وتكوينات صغيرة وتراث وتاريخ ولغة تقليدية تحمل منظومات الزجر والعقاب وعلاقات مجتمع تدفع للنظام السياسي بطغاة وحثالات وقتلة بعناوين سياسية مزورة.

العراب أو زعيم المافيا العراقي انبثق من النسيج المشوه، ولد كما ولد معه ومن مناخه القفاص والمفخخ والانتحاري والارهابي والنصاب والمكبسل،

وللسبب نفسه اختفى المثقف النقدي والمفكر لكي يحل محله العلاّس والمفجر واللص وضارب الدف والانتهازي والصاعد والنازل على قول ابن خلدون عن مرحلة انهيار الامم. إذا كان سافيانو قد حذر ايطاليا من قيامة الوحش واعتبره الفيلسوف الروائي امبرتو ايكو بطلاً قومياً عندما كتب « غومورا» وفي مجتمع يسمح بقدر معقول من العدالة والحرية، فنحن أمام مجتمع سدوم وعمورة التي خُسفت بها الأرض نتيجة فسادها و انحلالها الأخلاقي، سواء بغضب السماء أو بحكم قوانين الانحطاط والتفسخ الاجتماعية.

غومورا سافيانو تحولت إلى فيلم هي نفسها عمورة الفاسدة ولعنة الخراب. رائحة التفسخ حادة لكن أحداً لا يشم، ليس عن عطب في الشم بل عن إدمان. من العبث ارسال أوين بريك في مهمة شاقة لقتل مؤلف رواية الحرب لان المؤلف الحقيقي في مكان آخر.

٤٣

" المنطقة الحرة"

- ماذا لو اخترعنا طريقة مغايرة في الحب؟ لمَ لا نبدأ من الخاتمة؟ نفترق، ثم نلتقي إلى الأبد.   فرناندو بيسوا.

في قصيدة للشاعر الارجنتيني روبرتو خواروث الذي وصفه الشاعر اكثافيو باث بـ» «الشاعر الكبير للحظات المطلقة“، وردت عبارة» المنطقة الحرة» المسافة بين شخصين، وهذه المسافة لا تتحدث بلغتهما، كما لو لا علاقة لها بهما، بل تتحدث بلغة خاصة بها. أين تقع هذه المنطقة؟ لا يمكن تفسير ذلك بالمنطق، لأن الحب حسب نيتشة هو: الجنون الحكيم، لكن الذين يغلقون الباب على أحد عندما يرحل، ثم يتكئون على الباب في انتظار عودته، الذين يرحلون في قطار، غضباً، وقلوبهم تتمرغ فوق رصيف المحطة، الذين يقررون انهاء الحوار ثم يستكملونه على الوسادة وحدهم، الذين يديرون ظهورهم وعيونهم تحدق في الوراء، هؤلاء يعرفون المنطقة الحرة لكن لا أحد يعرف، أجزم بذلك، أين تقع.

يبتعدان، يفترقان، يتخاصمان، يحترقان، يرحلان، لكن لغة المنطقة الحرة تعمل لحسابها الخاص ولا علاقة لها بهما، ومن الصعب فهم لغة المنطقة الحرة لمن لم يقع فيها، هل تشبه الأرض

الحرام؟ ألم يقل روبرتو: الشِّعرُ يَقظة وجَوهرُه لا عَلاقة له بالتعلُّم أو الصَنعَة»؟ الذين يقضون الوقت في البحث عن الكلمات يبحثون في المكان الخطأ. اللغة الحقيقية البدائية الاولى تقع في تلك المنطقة الرمادية الحرة التي تفعل وتقول وتقرر كل شيء منفصلة عنا. اللغة المنسية، لغة الأحلام والرموز والأحاسيس وطقوس الجسد السرية التي ضاعت وحل مكانها اللغة الاجتماعية التي حدودها البقال والحافلة وعبور الشارع والفرن والعلاقات العامة. وروبرتو يكتب من اعماق عزلته لذلك يكتب عنا ويكتب ...إلينا.

"ثمة نداءات تدعوني إليك فيما أنت لا تدعوني.

نداءاتك في الأمس التي طغت على ماء الزمان،

ونداءاتك في الغد التي لن أسمعها ربما في الغد،

نداءاتك التي أبتكرها بدون علمي

إذ تصبح الوحدة شرسة أو نداءاتك التي لا تصدر عنك ولا عنّي،

كما لو كان بيننا منطقة حرة

تعمل لحسابها الخاص، منطقة أوجدناها تقريبًا بدون إرادتنا كي تنطق باسمك وربما أيضًا باسمي بدون حاجة إلى كلينا».

٤٢

" سلالم الخوف"

سكنت سنوات في منزل قبل الانتقال الى جزيرة وسط البحر الأبيض المتوسط تسمى هوند فوك، لكن جاري العراقي السابق قد وضع السلم الخشبي في الطابق الثاني على اليساروهذا السلم للهروب واحد من اجراءات الطوارئ التي وضعها هو خوفاً من مداهمة وليس ذلك وحده، في الباب عدسة وكاميرا مر اقبة، وعندما دخلت منزله يوما بدعوة منه وجدت سلاسل خلف الباب في حال فتحت بمفتاح مع عدة قتال يدوية، سلسلة حديدية، ومسدس للقتال من هجوم أشباح الماضي التي لا وجود لها إلا في خياله. أي بنى قبو تعذيب تحتي، ولماذا أحتاج الى تخيل شخصيات للمخلوقات المقموعة؟ يكفي النزول للطابق الثاني أو رؤية الاشباح كما لو في رو اية رجل في الظلام حيث أوين برك أخفق في قتل الراوي.

هذه نتائج الرعب وسنوات الخوف والتوقع والقلق التي تر افق هؤلاء ولو عاشوا في أكثر الدول أماناً لأن هؤلاء غير قادرين على محاكمة منطقية للماضي وتصفيته والخروج منه، صار الماضي

بنية عضوية مطاردة انتهى بعضهم الى سجون أو مخدرات أو أمراض نفسية وحتى انتحار أو في أحسن الأحوال عاد الى العراق لينتقم من ماضيه وجبنه وخوفه، ويتحول الى عضو في جماعة مسلحة أو عصابة لان الضحية تبحث عن ضحية للتنفيس عن اذلال معتق، بل بعضهم صاروا زعماء ووزراء وأعضاء برلمان ومدراء شرطة ومؤسسات، ويمكن تخيل وطناً يقوده مختلون مقنّعون، تحولوا من ضحايا الى جلادين لكن على عزل لا حول ولا قوة لهم في انتقام قذر من الماضي للتنفيس والتعويض، وعادة يختار هؤلاء ضحية ضعيفة كالنساء والأطفال والرجال العزّل خارج السلطة في أقذر سلوك انتقائي بشري، في حين الانتقام العادل والحقيقي هو التسامح والمحبة والغفران وبناء الذات .

كنت كلما أقبلت الى المنزل ورأيت سلم الطوارئ،

تذكرت أيضاً تاريخاً من الخوف، وعند الانتقال الى البيت الجديد وجدت في انتظاري أسراب النوارس وجيرانا رسموا على شرفاتهم الطيور وباقة زهور أمام الباب كترحيب بالنزيل الجديد.

٤٣

"أقنعة رقيقة لوحوش مخيفة "

من داخل كتاب «بلا ضمير» للعالم روبرت هير وكتابه مرجع في الطب النفسي لاكثر من ربع قرن للاختلالات الخفية المقنّعة:»هل تعرف رجالًا أو نساءً يعيشون على حافة الهاوية، وغالبًا ما يغيرون الوظائف، والمساكن، والعلاقات، والمنازل؟ ولا يشعرون أبدًا بالذنب أو الخجل - حتى عندما يُقبض عليهم وهم يكذبون؟

يفتقرون إلى التعاطف، ويعيشون في الوقت الحالي دون أدنى اعتبار لحياة ومشاعر الآخرين؟ ما هو مخطط طريقهم إلى المال والسلطة والعلاقات؟ قد يكونون مضطربين نفسيا، يتنقلون في الحياة بثقة تامة بالنفس - لكن بدون ضمير. غالبًا ما يكون من المثير أن تكون حول أحدهم. قد يكون من الخطر أن تحب أحدهم، أو أن تعمل معه أو تعيش معه. السمات المميزة للمرض النفسي: إنهم يتصرفون بشكل طبيعي، لكنهم ليسوا كذلك. إنهم أفراد متلاعبون وخطيرون يعيشون ويعملون في مجتمعاتنا ، غالبًا ما يتركون وراءهم

قلوبًا محطمة ومحافظ فارغة وأرواحًا مدمرة. عاجلاً أم آجلاً، سيواجه الجميع مختلا عقلياً. استنادًا إلى خمسة وعشرين عامًا من البحث الرائد، يعد «بلا ضمير» رحلة رائعة في أذهان هؤلاء الأفراد الخطرين. هل ولدوا غير قادرين على الشعور بالتعاطف، أم أنهم خلقوا بسبب الظروف؟ كيف ولماذا يفلتون من الغش والخداع والقتل؟ هل هم مجنونون أم ببساطة سيئون؟ البروفسور روبرت هير يسمى هؤلاء «المجتمع المموه» اي مجتمع الاقنعة. كيف يمكننا التعرف على هؤلاء الأشخاص المفترسين والابتعاد عنهم؟ يستكشف كتاب «بلا ضمير» أنماطهم المروعة - ويكشف عن واحدة من أكثر المشاكل الاجتماعية المخيفة، والتي غالبًا ما تكون مخفية والتي تؤثر على حياتنا اليوم.

هناك أشخاص ولدوا بلا ضمائر كما يحدث أن يولد الانسان ولادة ناقصة مشوهة كنقص في يد او رجل أو أصابع، لم لا يحدث هذا في مركز الضمير؟

هذا المفتاح يجنبنا الكثير من الوقت والحيرة والدهشة. الطب المختبري الحديث أثبت بالتجارب المختبرية، أن أشخاصاً يولدون بلا مراكز للضمير في القشرة اللوزية الدماغية في الجانب الأيسر من الدماغ أو المنطقة الرمادية وسلوك هؤلاء « الوحوش المقنّعة» مبني على محاكاة وتقليد الاخرين، والتصرف في الظاهر مثلهم لكنهم

حيوانات في حالة قنص بل حسب عالمة الاعصاب باربرا أوكلي في كتابها» جينات الشر:

Evil Genes. Barbara Oakley"، تقول: إن هؤلاء الأشرار يحتاجون الى قطع مرحلة تطورية طويلة للوصول الى مستوى الحيوانات وليس البشر، لان الحيوان يمتلك مشاعر تضامن ونجدة وحساً حقوقياً ورغبة في مساعدة حيوان ولو من فصيلة مختلفة وعنده حس العدالة واحترام الحدود، ولا يعرف التلذذ في التعذيب والاستغلال، وهي صفات تتوفر بإفراط في عديمي الضمائر. العالم الكندي روبرت هيرت في كتابه بلا ضمير Robert D. Hare's "Without Conscience " وإستنادا الى فحوص مختبرية دقيقة وتجربة حياة في فحص ومحاولة علاج هؤلاء السيكوبات والنرجسيين الخفيين حدد علامات واضحة في هؤلاء المرضى المشوهين ويطلق عليهم» مستنزفي الطاقة» لان حياتهم انهاك مستمر في ترميم وبناء الاقنعة، أي السمات العامة المشتركة بينهم، يفرغ هؤلاء الاشخاص حولهم من طاقة الحياة كمفرغة الهواء بالمكر والخداع والتلاعب لأجل المتعة والتلذذ. هذه السمات لا تختلف مع كل الثقافات لأنها أعراض عضوية كأعراض الأمراض الأخرى العامة لكنها تتأقلم مع كل بيئة وثقافة ومجتمع، وفي مجتمعات التخفي والاقنعة تضيع سمات هؤلاء، مع قابلية التنكر والاقنعة والتمثيل. هذه آلية عضوية وقواعد ثابتة خارج السيطرة

عبارة عن اختلال بنيوي عضوي تأسست عليه كل الشخصية، واي علاج جدي يهدمها، رغم عدم توفره حتى اليوم، لكن هناك علاجات مخففة من هذا الهوس المرضي المخفي بمهارة ومكر وهؤلاء في كل المهن ويصلون الى المناصب العليا نظرا للطرق الماكرة الملتوية ومتانة الاقنعة والتخفي خلف مبادئ وعقائد وواجهات. صفحات التواصل توفر لهؤلاء فرصة نادرة لبناء شخصية مزيفة واختيار ضحايا لا يعرفون هذه العاهات حتى أن واحدة استطاعت اختراق نخبة من الشعراء والادباء بأسماء مستعارة مرة غزال وأخرى رشا عزيز وثالثة ريم الطائي وفي كل صفحة اسم مستعار بواجهة ثقافية وفي الداخل ماخور عفن وهي متزوجة وأم لثلاثة أبناء كبار والتلاعب بهؤلاء جنسياً على انها مغرمة بهم وبشعرهم حتى ان بعضهم وقعوا في غرام سيمون دي بوفوار عراقية وكتبوا لها أرق الرسائل والقصائد مع انها كانت تمرغهم بالوحل أمامي بالأسماء خلال تواصلها معي من باب التفاخر والتباهي وتكشف تفاصيل تشريحية عن علاقتها بهم وتعرفت على ثلاثة من هؤلاء من شعراء قصيدة النثر: طالع عبد العزيز وعمار عبد اللطيف الأستاذ الجامعي الهرم المتصابي - تحوير بالأسماء - الذي ترسل لي غرامه بها ومقارناته بين نهد التفاح ونهد الرمان وترسل قصائد الآخر عبد العزيز من باب السخرية وشاعر يسمى وليد خشان دون أن يعرف أحدهم الآخر وهو مريضة ومنحرفة ونرجسية خفية وتعاني من ثالوث الظلام(النرجسية والسيكوباثية

ونزعة الاستغلال Dark triad) والمتوقع ان يكون العدد أكبر من ذلك بكثير كما تعترف هي ، في بلد صار صعباً التمييز فيه بين الوجه والقناع وحسب صديق هو طبيب نفسي يقول ان «النصب الثقافي» ظاهرة جديدة في مجتمعنا وكان سابقاً مباشراً بلا طقوس ولا أقنعة ثقافية. تطور حتى الاحتيال. هذا الصنف السيكوباتي والنرجسي الخفي خبير الأقنعة سواء كان امرأة أم رجلاً يعيشون في جحيم مستمر سري رغم الاستعراض المسرح يتغذى على اللحظة والشاحن والوقود والاطراء، مع تهور خطير للغاية لو لم يشبع الهوس، ومع هؤلاء تتحول الحياة الى جحيم لكنهم على المستوى الشعوري هناك إدراك ما لطبيعة التشوه. بعضهم يعرف عاهته والبعض لا يعرف ويعتقد أن هذا طبيعي ومن حقوقه، لأنه لم يسمع ما يوقظ ضميره الميت، وفي كل الأحوال لن يعترف بل يلقي اللوم على الآخرين في شجارات حادة ودفاع مستمر وكل ما يخشاه هؤلاء» الشياطين المتنكرين» هو الفضح والانكشاف ونزع الأقنعة ولا خوف آخر من أي شيء، لذلك هم في نشاط يومي مهلك ومستنزف لترقيع القناع لو حدث فيه خرق أو يقظة من آخر أو عند نزع الأقنعة التي بنوها سنوات ومعها واجهات أخلاقية مزيفة، بل هم في دفاع مستمر كما لو في حرب ضروس بلا نوم حتى الفجر هرباً من مواجهة الذات الطبيعية المدفونة. تكون المشكلة أخطر لو تبنى هؤلاء عقيدة في الظاهر كما في قضية ايخمان النازي، و اندمجوا مع جماعات

مشابهة للعثورعلى هوية فردية وتختفي العاهة المرضية تحت قناع مزيف صنع بمهارة و اتقان سواء عقيدة دينية أوسياسية أوعاطفية لأن الغطاء ضروري ويتحول القتل أو الغدرإلى مبادئ. دائما أتذكر قول دويستوفسكي:

«لم يعد في وسعي التحمل. أعطني البندقية».»ماذا ستفعل؟ الانتحارخطيئة»» أي انتحارأيها الأبله.سوف أقتل الجميع». لقد زرع الدكتاتورصورته في أعماق ضحاياه وصنع مجتمع الوهم والأقنعة. هل كان بول أوستريعرف ذلك؟ هل كان بحاجة لخلق عوالم موازية والنزول الى العالم السفلي كما تفعل ريم او رشا او غزال أو هدى وغيرها الكثيروهناك تمارس كل طقوس الشياطين؟ وهو ما لم تفعله ميريام ذات الأعوام السبعة والأربعين التي تعيش مطلقة ولا ابنتها كاتيا التي قتل زوجها تايتوس في العراق كسائق شاحنة في رواية رجل في الظلام. لكن في أي ظلام كان هؤلاء؟ عن أي ظلام يتحدث بول أوستر؟

٤٤

- من يتصارع مع الوحوش عليه أن يحذر أن يتحول هو الآخر إلى وحش. *فريدريك نيتشه.

استجواب الرئيس أم استجواب المحقق؟ خلال قراءة كتاب المحقق الامريكي جون نيكسون: استجواب الرئيس" وهو ضابط المخابرات المكلف بدراسة شخصية صدام قبل الاحتلال بسنوات، والبحث في كل تفاصيل حياته الخاصة وعلامات جسده من وشم وبقايا جرح رصاصة خلال محاولة اغتيال الزعيم قاسم ١٩٥٩، وطريقة تفكيره، لكن الملفت حقاً في أول لقاء مع نيكسون وفريق الاستجواب الامريكي، وفي الساعات الاولى من القبض عليه، قدم صدام شكوى خطية عن سرقة الجنود منه نصف مليون دولار خلال القبض عليه وكان منزعجاً.

المحقق الامريكي الاشد حقداً على صدام قبل الحرب وقع في غرامه في النهاية وهو امر متوقع لان هذا التماهي يحدث كما في متلازمة ستوكهولم، وفسر الامر كما فسر غيره على ان صدام تجاوز بسرعة صدمة السجين في الساعات الاولى وظهر متماسكاً ونيكسون لا يعرف طبيعة هذه الشخصية النمطية التي تعطي انطباعات

مختلفة لكل من تلتقي به، فهي شخصية ديمقراطية وشاعرية ومعادية للعنف والاكراه في مكان، وشخصية ، في مكان آخر، عدوانية شرسة مستعدة لمطاردة الخصوم ولو على حافة الأرض، وسبب هذا التشظي هو التربية المنقسمة والتشوه المعرفي Cognitive distortion الذي تعرضت له مما زرع فيها عشرات الشخصيات المستقلة عن بعضها وكل شخصية لها وجودها المستقل وتنتقل من شخصية الى اخرى بسلاسة نتيجة المران والتكرار كما في مثال غزال او ريم أو رشا وغيرها الكثير على عكس ميريام وكاتيا حفيدة أوغست بريل الذين يبحثون عن حلول و اقعة للخروج من المأزق من دون حاجة لصناعة شخصيات مزيفة ومقنّعة. لكن هل النصف مليون دولار هي كل ما شغل بال صدام في تلك الساعات العصيبة والبلاد وقعت تحت غزو؟ المحقق الامريكي قال في كتابه بأنه وجد كل المعلومات السابقة عن صدام كانت خاطئة و انه اكتشف صدام حسين آخر كما سيعرف يوما شعراء النثر ان ريم ليست شخصية حقيقية بل شخصية نرجسية خفية مدمرة. بالطبع لا يعرف نيكسون ان هذا نسيج العنكبوت الذي ينسجه صدام حين يصطاد ضحاياه عن طريق الظهور بمظهر قديس أو رقيق أو شاعري وتعلمه من ميشيل عفلق، والانتقال من شخصية الى أخرى ليست خاصية صدام بل خاصية مخلوقات المجتمع المغلق والصلب والقمعي، كما ان صدام هو من تلاعب بالمحقق الامريكي وقدم له شخصية

مختلفة تماما عن ما يعرفه من تقارير المخابرات، كما خدع رفاقه وخدع أحزاباً بل خدع حتى اليوم شعوباً ثم خدع نفسه بانتفاخ مرضي ووهم العظمة قضى عليه وعلى وطن. الاقنعة نفسها التي خدع بها حراسه الامريكان الاثني عشر جندياً أو ما يمكن تسميتهم بحواريي صدام في نسخته الجديدة كراهب ومرح وعاشق للاغاني الغربية بل الموسيقى أيضا وظهر انه يهيم باغنية فرانك سيناترا: غرباء في الليل، لدرجة بكاء وانهيار هؤلاء لحظة اعدام «العم» كما يطلقون عليه. تابعت مصير هؤلاء نهاية خدمتهم والعودة الى أسرهم، من خلال كتاب أحدهم: سجين في قصره»ل: ويل باردينو رير، ولم يكن مفاجأ ان حياتهم جميعاً انقلبت وعادوا الى أهل وزوجات وقد تلبستهم شخصية صدام بين منتحر ونزيل مصح عقلي أو سجين أو كآبة حادة والخ.

إن جون نيكسون كان يفهم صدام حسين قبل الحرب أفضل مما فهمه في السجن لكنه وقع مثلنا في الوهم الأخطر: هو اعتقد أنه تعرف على صدام الحقيقي، مع ان جذور صدام حسين تمتد من التاريخ الى الايديولوجيا، ومن تقاليد شقاوات الشوارع الخلفية الى رجل الاغتيالات بدم بارد، ومن الخرافات المحلية الى الستالينية والنازية، ورباطة الجأش التي رأها نيكسون في صدام في اللقاء الأول والسؤال عن المال المسروق لرجل منفصل عن الواقع كما في كل

تاريخه كشخصية عدو انية مقنّعة بمبادئ، هو» الثبات الانفعالي» الذي تتميز به الشخصية المصابة بـ «ثالوث الظلام":السيكوباثية والنرجسية الخفية السامة والسادية الميكافيلية كما هو حال الأسماء المتعددة في صفحات التواصل:لـ ريم او غزال اورشا عزيز الأب الذي اغتاله الناس عام ١٩٩٥ في شارع عام كعضو في حزب السلطة نكل بالأبرياء وشارك بإعدام أبرياء وتولت الابنة الانتقام من الأبرياء كما كان يفعل الأب في تعويض وحشي بقناع شعري.

جاء في مذكرات برزان التكريتي - الأيام الحلوة والايام المرة - إن صدام اتصل به صباح غزو الكويت وهو في جنييف ليقول له إنه دخل الكويت ورأى في الحلم والد برزان ابراهيم الحسن يرقص فرحاً في الجنة، سعيداً .

هذه الشخصية المريضة تخلق سيناريو خارج الو اقع كما خلق لحظات الشنق وتتعامل معه على انه الو اقع الحقيقي وتقتنع به مما يوحي للاخرين ثقة بالنفس وصلابة وثبات نفسي في حين الحقيقة أبعد ما تكون كذلك لأن الثقة بالنفس تشترط النبالة والانسجام مع ذات طبيعية وتقديس حياة وكرامة الاخرين ولا يمكن لمن دفن الاطفال والنساء والشيوخ أحياءً أو قتلهم بالغازات السامة شجاعاً ولا يمكن اختزاله بالمشهد الاخير ومحو تاريخ الدم.

هذه الشخصية بصورة عامة لا تعرف: الندم، التراجع، الحياء، بشكل مطلق، لانها مفرغة من الضمير عضوياً، بل تواجه ذلك بالتغطرس الوضيع كسلوك دفاعي صفيق للحفاظ على القناع. لكن الوهم الثاني الذي وقعنا به نحن هو الاعتقاد بموت صدام، قال استاذ التاريخ هادي العلوي الذي هو أفضل من قرأ التاريخ من منطقة تفكير مختلفة بشهادة صادق جلال العظم في كتابه: «ذهنية التحريم» في رسالة لنا بخط اليد الى السجن الباكستاني عام ١٩٨٩:»صدام حسين ظاهرة عر اقية تاريخية على مر العصور". صدام يقف خلف باب اللاوعي الجماعي، وفي لحظة غضب يظهر لك من الشخص الجالس معك على مائدة الطعام او في مقهى او حديقة أو حين يكون في سلطة.

تمكن صدام حسين من زرع صورته في أعماق ضحاياه ولسنوات طويلة قادمة وبلا قطيعة فكرية وثقافية مع العقل السياسي الرث وهي ليست مهمة طبقة سياسية نهابة تعاني من الامية الثقافية و انعدام المسؤولية، سيظل صدام حياً كعقلية وطريقة ادارة الدولة وكشخصية متشظية مراوغة تأخذ شكل المكان الذي تتواجد فيه. كما درب صدام حسين المعارضة السابقة على أساليبه وشحنها بالحقد والضغينة ومشاعر الانتقام بلا مشروع حقيقي للتغيير في حين الانتقام الحقيقي هو بناء دولة وطنية عادلة، وولد الصل من

الأفعى بعد الاحتلال، كذلك يقوم نظام اليوم بتدريب معارضيه على الأساليب نفسها في غياب مشروع تغيير حقيقي: نحن في الحقيقة نسبح في وحل لزج، مرتين. في زمن صدام ولد المسخ وفي زمن اليوم ولد الذئب ولا يستطيع ألف بول أوستر قتل صانع الحرب ولو كلف ألف أوين بريك بعد أن أخرجه من حفرة لكي يقع في هاوية.

٤٥

- كنت أرى مجرما يغفر خطايا بريء، وكان ذلك يمزق قلبي تمزيقا.

دوستويفسكي

لم يتمكن أوين بريك من قتل الروائي مؤلف حكاية الحرب ولا نعرف من كان يقف خلف ذلك: هل هو أوغست بريل الشخصية المتخيلة في رواية» رجل في الظلام» أم الروائي بول أوستر صاحب « ثلاثية نيويورك» و» موسيقى الصدفة» و» حماقات بروكلين» وغيرها؟ لكن ما نكتشفه في النهاية أن الحكاية الحقيقية ليست البحث عن المؤلف واغتياله لأن هذا هو البناء السردي العام والهيكل لعمارة بول أوستر السردية في حين الحكاية الحقيقية هي التذكير بفظاعات الحرب والتذكير أيضاً في أن هناك أكثر من و اقع في هذا العالم:

« لا يوجد و اقع وحيد، يا عريف، هناك أكثر من و اقع. ليس هناك عالم وحيد. هناك عدة عوالم وكلها يسير أحدها يوازي الآخر. عوالم وأطياف وكل عالم حُلم به أو تُّخيِل أو كُتب من قبل أحد ما في عالم آخر. كل عالم هو من ابتداع الذهن»ـ من رو اية رجل في الظلام.

ينطبق علينا قول المفكرة حنة أرندت: ليس العالم الثالث حقيقة بل آيديولوجيا وحسب". نحن في الحقيقة أساطير وعقائد وخر افات وأوهام متجولة. عندما ينزل أشخاص الى الشوارع والميادين المكتظة بالناس ويطلقون النار على أشخاص لا يعرفون من هم فلا يعني ذلك أن السبب عائد إلى عقائد ومبادئ يدافعون عنها، فالدفاع عن الوظيفة والمكسب والضحالة الاخلاقية والمصلحة هي دو افع للقتل وخيانة الضمير والآخر.

خلال متابعتها جلسات محاكمة النازي أودولف أيخمان في القدس بعد اختطافه من الارجنتين في بداية الستينات التي عاش فيها متنكراً لاحظت الفيلسوفة الالمانية حنة أرندت أن أيخمان لا يتصرف في المحكمة كقاتل عقائدي مؤمن بالنازية مع انه قام بأفظع الاعمال في المحرقة ولا يصدر شره عن دو افع عميقة، بل عن ضحالة اخلاقية وقذارة نفسية وليس عنصريا كما صورته الدعاية الاسر ائيلية، وكتبت كتابا « أيخمان في القدس: تفاهة الشر" ورغم كونها يهودية وضحية معتقلات النازية لكنها متحررة من الأوهام والأساطير، الكتاب أشعل نار الكراهية ضد حنة أرندت لأنها خرجت عن التفكير السائد والبناء النفسي الصوري في تصوير أيخمان كمجرم بتوجهات مسبقة وكاره لليهودية إنما رأته في الو اقع كشخص تافه وسطحي وعديم الضمير.

- هذا الصنف أخطر مسخ بشري لأنه لا يقتل ويدمر ويخرب فحسب بل يتمتع في سلوك متوحش من دون أي ندم ولا مشاعر ولا عواطف، لكنه يحاكي ويقلد الاخرين حسب توقعاتهم منه، النموذج الأوضح للسيكوباثي والنرجسي الخفي المرتدي أقنعة ولم يترك للشيطان ما يفعله بل هو الصورة الحقيقية للشيطان في الخيال البشري عبر التاريخ.

تنطلق حنا أرندت في تحليل شخصية أيخمان من قراءة عميقة للشر في أنه دافع سطحي وتافه وعلى العكس من ذلك أن الخير هو الدافع الأعمق في البشر. بعد محاكمة أيخمان في القدس وإعدامه شنقاً وحرق جثته ورمي رمادها في البحر، لكن في السنوات الأخيرة بدأت مراجعة وقراءة مختلفة لها بين جيل جديد لا يخضع للحاخامات وهو ما توقعه لها الفيلسوف الالماني كارل ياسبر صديقها المقرب في رسالة عام ١٩٦٣:

« سيأتي زمان لن تكوني حية لتشهديه، سينصب لك اليهود نصباً تذكارياً في إسرائيل وينسبونك بفخر إليهم".

رداً على منطق يقول إن أيخمان كان شخصاً بضمير نازي، كانت حنة ترد بعمق باهر: هو بلا ضمير لكنه ليس نازياً، وتجنب التفكير في عواقب أفعاله وقاتل المكتب هذا يرى نفسه مواطناً صالحاً يتبع

أوامر أعلى منه.

في هذا السياق فهمت حنة شخصية أيخمان، على أنه ولد من نسق ثقافي وسياسي عام وضميره لم يؤنبه لأنه لم يسمع من الخارج ما يندد بهذه الأفعال بل العكس.

كيف تقتل أشخاصاً ببندقية بي كي سي كما في مذبحة السنك في بغداد عام ٢٠١٩ وهي مخصصة لحصد حشود بشرية مهاجمة ومجربة وتطلق ٦٥٠ طلقة في الدقيقة لإيقاع أكبر عدد من الضحايا، دون أن تعرف من هؤلاء وبلا دو افع شخصية عميقة؟

هذا السلاح مخصص للابادة وليس لجريمة قتل عادية. هؤلاء القتلة الذين يعانون من ضحالة أخلاقية وفكرية تم تحويلهم الى حيو انات قبل الجريمة، وتم تحويل الضحايا الى أشياء، والتشيؤ Reification هو تحويل العلاقات البشرية الى علاقات آلية غير شخصية، وعندما يتشيأ الانسان، أي يتحول إلى شيء، لا يمكن التعاطف معه، بل يمكن قتله وخيانته علناً واحتقاره بل وتفكيك جسده، اي تقطيعه بلذة لأن الفرد لا يتعاطف مع آلة مفككة كراديو أو هاتف أو دراجة، وفي الحياة اليومية مظاهر كثيرة لهذه الظاهرة البشرية القذرة التي تضيع في بيئة مشوهة.

نحن نمنح صفة عقائدية لكل ضحل وتافه وعديم الضمير.

٤٦

اقترحت عليّ فريدة التي ظهرت في رو اية «ولادة الذئب» العودة الى العراق وقضاء ليلة في عراء الصحراء بين العراق والكويت في مكان دفن الجنود العر اقيين، أحياءً، وقد حصلتْ على خريطة للمكان من عقيد مكافحة الاجرام حازم من الاستخبارات العسكرية الذي تم إطلاق النارعليه في رو اية» ولادة الذئب» لكن ليس في الو اقع، ولست أدري لماذا قررت محاولة اغتياله بلا تفكيرولا تخطيط لكنه النسيج اللغوي هو من قررذلك.

كان ذلك في آذارفي الربيع لأن الأرض تطفح بما في داخلها لكن من الصعب بعد حوالي ٣٤ سنة في العواصف الرملية والاعشاب والنباتات الصحراوية معرفة المكان في أرض امتلأت بالمجازر.

على عكس ما يقول أوغست بريل» ليلة بيضاء جديدة في البراري الأمريكية الشاسعة»، نحن وصلنا في غسق مسائي رماني محترق وشمس على وشك الغروب كما لو ستسقط نهاية الصحراء في عراء عراقي غسقي.

كل شيء ينذر بالغروب، وكنا نسمع من أعماق الأرض نحيباً صامتاً كما لو أن الأرض في مأتم، وفوقنا يحوم طائر صغير قد يكون خائفاً على عشه، في الأفق تبرق نجوم وقد بدأ الجويبرد. دخلنا سيارة الدفع الرباعي لفريدة ونصبنا خيمة صغيرة فوق ما يفترض انه خط دفن الجنود أحياءً وفوقه أزهار برية ملونة.

في أعماق الليل وصل الى سمعي عواء ذئب من بعيد تحت سماء مرصعة بالنجوم وصمت الصحراء. عندما سألت فريدة هل تسمع شيئاً؟ أجابت: لا.

من أين يأتي هذا العواء الطويل كليل العراق تحت قمر متوهج طفل وقريب كلوحة لمارك شاغال؟

عندما أفقت في الصباح تحسست مكان فريد لكن لا وجود لها ولا وجود لصحراء أو خيمة ولا سيارة دفع رباعي ولا عراء عراقي أبيض ولا حدود صحراوية ولا شمس على وشك الغروب ولا قمر أبيض، ولم أفكر بكتابة تناص مع رو اية رجل في الظلام لبول أوستر، وكل ما وقع عليه نظري طاولة عليها رو اية» ولادة الذئب» وأخرى» العشيق المشترك» في حين كان الثلج يهطل عبر النافذة وتهطل معه أشياء كثيرة، وسمعت باب المنزل يُفتح ولا أعرف من، وقدح قهوة حار وضع فوق الطاولة وموسيقى تأتي من بعيد غير واضحة لمن، وعندما

وقفت شعرت أنني في غرفة بلا جدران ولا شيء يمكن الإمساك به كما لو في غرفة مظلمة أو أمشي في الضباب.

المحيّر من كتب رواية «تاريخ مضاد»؟

دار بصرياثا للثقافة والأدب للنشر

BASRAYATHA Publishing

Basrayatha Publishing House

www.publishing.basrayatha.com